روايات مصرية للجيب

سلسلة الروايات

18

Looloo
www.dvd4arab.com

مغامرات س

وراء الظلال

بداية

﴿ ويسألونك عن الروحِ قلِ الروحُ من أمر ربِّى وما أُوتيتُمْ من العلمِ إلا قليلاً ﴾

(سورة الإسراء ، الآية ٨٥)

مغامرة أخرى

قال (أبراهام لنكولن) يومًا :

خير لك أن تصمت ويظن الناس أنك أحمق ، من أن تتكلم فلا يعود هناك مجال للظن !

لكنى سأتكلم ، فمن ذا الذى يستطيع إقناع (نسرين الجبالى) بأن تكف عن الكلام .. أو عن الحماقة ؟!

أكتب لكم اليوم - يا أصدقائى الأعزاء ويا صديقاتى العزيزات - عن مغامرة أخرى لى معه ، ورجاء لاتسألونى عن كنه ضمير الغائب المذكور حتى لا أضطر إلى إعادة ما قلته مراراً وتكرارًا ؛ عن ذلك الرجل الظل .. الغامض .. الموجود بلا وجود .. والمختفى خلف ستائر العدم السرمدية (يالى من مملة !)

اليوم يا أصدقاء موعدنا الجديد مع السيد (س) ..

إن من كان معى مسبقًا يعرفه بالطبع ، أما المسكين الذى يبدأ رحلته معى من هذه المحطة المتأخرة نوعًا فربما يكون قد استنتج من عنوان السلسلة أن هناك سيد (س)،

وربما يتساءل الآن ـ وهذا حقه ـ عن هوية هذه الفتاة التى تتحدث عن بطل السلسلة بكل الحماسة والملل (يالله من مزيج عجيب !) ، ألف ربما وربما ، لكنى واثقة من أمر واحد ؛ أنه مسكين حقًا !

ودعونى لا أسهب وأطنب وأتمادى فى ثرثرتى المعتادة التى أتحفكم وأخنقكم بها فى كل لقاء ..

لم يتغير شىء بعد ، مازلت أدعى (نسرين الجبالى) ، ومازلت أستعد لامتحانات السنة النهائية فى كلية الإعلام ، وأعمل فى الوقت نفسه صحفية تحت التمرين فى جريدة (الأربعاء) الأسبوعية ، ومازلت مخطوبة للرائد (هشام القاضى) بالمباحث الجنائية ، ومازلت قادرة على الحياة والجنون ومضايقة خطيبى ؛ حتى بعد مغامرتى الرهيبة السابقة مع (إخوة الدم) ..

والسيد (س) بدوره لم يتغير ، مازال لغزًا غامضًا كما ينبغى للغز غامض أن يكون ، ومازال سرًا مستغلقًا عصيًا على الانكشاف كما ينبغى لسر مستغلق عصىّ أن يكون ، ومازال ظلاً يسكن منطقة العدم كما ينبغى لظل عدمى أن يكون ..

لكن الحياة تأبى كعادتها أن تستقر على وضع الثبات ، فهى كالأمواج إذا سكنت ماتت ، وهى متقلبة كما تفرض عليها طبيعتها ، وهى لاتمنحك فرصة لتعتاد على شىء ، إذ تغير من جلدها بسرعة كأنها ثعبان مختل عقليًا ، وترفض إن تمنحك قليلاً من الـ .. (ها قد عدت للثرثرة !)

كنت أقول ، إن اليوم هو موعدنا يا أصدقاء مع السيد (س) ..

الأصدقاء أقوياء الذاكرة فقط سيتذكرون أن اليوم هو آخر التزام لى برواية القصص التى ورد ذكرها فى سياق مغامرة (دائرة الموت) ، ولعل قلة منهم تذكر شيئًا ما عن معرض لوحات فنية .. وعن فنان يدعى (طارق شهبور) ..

نعم ، اليوم هو الالتزام الأخير ، وأعود بعدها لرواية ما حدث متجاوزة مغامرة (دائرة الموت) ، ولعل الرواية القادمة تحديداً تكون مفاجأة ..

سارة ربما ، محبطة للآمال ربما ، كل ما أستطيع أن أضمنه لكم هو أنها مفاجأة ..

وحتى لانخرج عن سياق روايتنا هذه ، دعونا إذن نعود إلى (طارق شهبور) ..

هذا الرجل هو بطل قصة اليوم ..

فقد كان معرض لوحاته هو الشرارة الأولى التى اندلعت منها نيران متأججة (خلف الظلال) !

تعرفون عنى أننى لست من هواة إفساد القصص على القارئ فى مقدمات سخيفة ، غير أن الضرورة الفنية تقضى بأن أذكركم بأمر واحد قبل أن نشرع على الفور ، هذا الأمر هو :

(لا تثق أبداً فى أصحاب الوجوه الملائكية البريئة ، فالشيطان نفسه يمكن أن يختفى خلف قناع كهذا !)

وتفضلوا بقبول فائق احتراماتى ، واحترامات السيد (س) ..

★ ★ ★

١ـ صديقة قديمة !

عندما تبدأ قصة ما بهاتف يرن فى إلحاح ، فإن عدم الرد على هذا الهاتف يعنى نهاية القصة قبل حتى أن تبدأ !

ـ آلـو ....

كنت قد وضعت عشرات الخطط لبداية اليوم الجديد ، وكنت أعلم أننى لن أحقق شيئًا من نواياى كما هو عهدى بنفسى .. سيمر الوقت وسأجد اليوم يذوى بين أصابعى كزهرة مقطوفة ، فأضطر وقتها لتأجيل كل شىء إلى غد لايجىء ، وربما تماديت وألقيت باللوم على الزمن الذى يمضى كقطار لايتوقف إلا فى محطته الأخيرة ، كما أفعل دومًا عندما لا أجد شيئاً آخر أفعله !

ـ آلوووووو ..

لم يكن رنين الصوت غريبًا على أذنى ، ولم يكن هذا الامتداد الصوتى الناعم فى نهاية العبارة الاستهلالية بغريب أيضًا على ذاكرتى ، لكن هذه الأخيرة ـ الذاكرة ـ لم تسعفنى بسرعة ..

أنا أعرف هذا الصوت الأنثوى المبحوح قليلاً ، لكنى لا أذكر صاحبته ..

ـ من معى ؟!

ـ (نسرين) .. ألا تذكرينني .. ؟!

أكره هذا السؤال الذى لايليقيه صاحبه إلا ليؤكد لك حماقتك .. كم من الوجوه تراها على امتداد سنوات عمرك حتى يصبح تذكر أحدها بهذه السهولة ؟ ناهيك عن الأصوات طبعاً !

كانت إجابتى واضحة وسريعة بعد هنيهة من الصمت والتفكير :

ـ ليس تمامًا ..

وعاودت السؤال غير مخفية ضيقى ، حتى لا تفعلها صاحبة الصوت ؛ منساقة خلف رغبتها فى تأكيد حماقتى لى ولنفسها :

ـ .. من معى ؟!

لكنها فعلتها بكل أسف :

ـ خمنى !

فى هذه الأحوال أستميت لقطع كل سبيل على محدثى ، مهما كلفنى ذلك من ..

ـ لا أذكر بكل أسف ..

.. برود ..

ـ .. هل لى أن أعرف هويتكِ إن أذنتِ ؟!

.. أو لنسمِّ الأشياء بأسمائها : سماجة !

ـ هممممم .. أنتِ لا تذكرينني إذن ..

ـ هذه حقيقة !

ـ ذاكرتك ضعيفة جدًا على ما يبدو ..

ـ إنها تزداد ضعفًا بمرور الزمن !

لن يتغلب على مخلوق فى مباراة سخافة ، وهأنذا أبلى بلاء أفضل فى كل مرة ..

تنهدت صاحبة الصوت المبحوح أخيرًا ، وقالت بإنجليزية ممتازة :

ـ إنه زمن طويل حقًا !

أضاء ركن فى ظلمة العقل الدامسة ، لكنه لم يكن يحوى صورة الفتاة بكل أسف !

ـ ليس أطول من بالى الآن وأنا أحدث شخصًا أجهله !

ضحكت صاحبة الصوت فأشعلت نيران غيظى ، وقالت :

ـ ما زلت مشاكسة ..

ـ وقليلة الصبر !

ـ أحب أن أتركك فى هذه الحيرة قليلاً ..

بدأت رغبتها فى إثبات الحماقة تتحول إلى سادية واضحة مكتملة المعالم ، ولما لم أكن مستعدة لهذا النوع من اللعب الطفولى ، فقد زفرت بضيق بائن ، ونظرت إلى ساعة الحائط أمامى ؛ والتى أشارت إلى العاشرة صباحًا بالتقريب ، ثم قلت محدقة فى سطح كوب (النسكافيه) الفخارى المستكين بين أصابعى :

ـ كنت أتمنى أن أستمتع بأمر كهذا ، لكنى لا أملك الوقت الكافى بكل أسف ..

سألتنى :

ـ هل أنتِ مشغولة أم ماذا ؟!

قلت وأنا أتحامل على نفسى حتى أستطيع احتمال سخف الموقف :

ـ أنا أفترض أنكِ تعرفيننى ، وبالتالى أفترض أنك تعرفين بكونى طالبة على أبواب امتحانات عامها النهائى بالكلية ، ومعنى هذا بديهيًا أن أمامى عشرات الصفحات التى سأقرؤها وأملؤها بالهوامش والمسودات والخطوط الطولية والعرضية و ....

أتانى هتافها مباغتاً :

ـ أو .. كلا .. لاتقولى باللّه عليكِ إنك لن تستطيعى القدوم إلى النادى اليوم !

النادى ؟!

بدأت بقعة الضوء تتسع فى عقلى ، وبدأت شذرات بعيدة فى التجمع لتكوّن ملامح باهتة غير مكتملة ..

ـ من ؟! هل أنتِ ؟!

وصمتت ، فى حين واصلت بقعة الضوء اتساعها البطىء ، وبدأت الملامح تتضح تدريجيًا وإن لم تتخذ تشكيلها النهائى ، ويبدو أن اللعبة عادت تروق لمحدثتى فقالت كأنها تحثنى على المضى قدمًا :

- نعم .. هيا .. ستفعلينها يا فتاة ..

وأضاء العقل كله فجأة ، كما يعود التيار الكهربى إلى الأسلاك ، فبرزت الصورة واضحة فى جلاء أمام عينى ، وقفز الاسم دون وعى منى إلى لسانى ..

إن هذه الفتاة ذات الصوت المبحوح ، والامتداد الصوتى فى آخر العبارات ، والتى تتكلم بسرعة ألف كلمة فى الثانية ؛ بعضها عربى وبعضها لاتينى ، هى :

- ... (باهى) ؟!

وسمعت صوت فرقعة أصابعها عبر السماعة ، مع هتافها المستحسن ؛ كأنها تشجع فريق كرة قدم :

- برافو .. تمامًا .. ذاكرتك ليست بالضعف الذى تصورته إذن !

هتفت بدورى وقد ابتسمت رغمًا عنى ، ربما لهبوب تلك النسمات البعيدة محملة بعبق الذكريات :

- منذ متى لم أسمع صوتك يا (باهى) ؟

سنين بعيدة .. ألم أقل لك إنه زمن طويل حقًا ؟

كانت محقة ، فكم من الزمن يفصلنى الآن عن تلك الفتاة التى أراها فى الصور الفوتوغرافية ، بضفيرتيها ونظارتها الكبيرة وعينيها الحزينتين ؟

تلك الفتاة التى كانت أنا فى يوم من الأيام ؟!

كنت فى أوائل العقد الثانى - الذى أنهيه الآن بنجاح - عندما تعرفت على (باهى) ..

فى ذلك العصر الذهبى كان أبى يصحبنى فى يوم العطلة الأسبوعية إلى النادى ، على أمل منه أن أنغمس فى مجتمع من الصديقات والأصدقاء ، فأخرج من انطوائيتى ، وأتخلى عن توحدى الأبدى مع الصمت والكآبة ..

ولكن هيهات ..

كنت أتلهى عن الضجيج من حولى بمداعبة دميتى ، أو بالشرود فى تأملات تتجاوز سنوات عمرى القليلة ، أو بالقراءة فى روايات الجيب التى أدمنتها كما أدمنها الجميع !

لكن مخططه نجح عندما تعرفت على (باهى) وصديقات أخريات قد لا أذكر أسماءهن الآن ..

لا أذكر كيف ولامتى كان تعارفى بـ (باهى) ، فى الغالب

لم يكن هناك حادث له سمات مميزة تلتصق بقشرة المخ .. كل ما أذكره هو أننا كنا نلعب (الأولة) معًا ، وأننا كنا نتناول الشطائر معًا ، وأننا كنا نتبادل أحاديث طفولية معًا وسط زمرة فتيات النادى ممن تتقارب أعمارهن ..

لم أكن أراهن إلا مرة أسبوعيًا ؛ أو بصفة غير منتظمة فى أغلب الأحوال ، حتى كبرنا ودخلنا فى طور المراهقة كما تفعل كل الفتيات ، وبدأت الأحاديث بيننا تتخذ مسارات أخرى لا أحبها ؛ والفتيات اللاتى دخلن أو تجاوزن هذا الطور ليعلمن بكل تأكيد ما أتحدث عنه ..

إن (باهى) وصديقاتها من طراز فتيات النوادى فارغات العقل ، اللاتى يملكن الوقت كله للتحدث فى التفاهات والصغائر ، وأحيانًا ممارستها بنزق وجنون لايتناسب مع طبيعتى المتحفظة ، وبالتالى فقد كان انقطاعى عن الذهاب إلى النادى ـ منذ دخلت الثانوية ـ أمرًا حتميًا لامفر منه ولا غرابة فيه ..

لكن الغرابة الحقيقية فى هذا الاتصال الهاتفى المباغت الذى لم أتوقعه البتة ..

ـ وما الذى ذكّرك بى الآن ؟

ربما كان فى السؤال بعض من قلة الذوق ، لكن عذرى الوحيد أننى لم أنتبه لذلك وقتها ..

ويبدو أنها بدورها لم تتوقع سؤالاً كهذا ، فقد صمتت قليلاً ـ ولابد أنها تساءلت فى أعماقها عن كنه هذه المخلوقة العجيبة التى تقذف بالكلام كحجارة من سجيل ـ قبل أن تقول ؛ ولابد أنها مطت شفتيها امتعاضًا :

ـ لا أعلم .. أتيتِ على بالى منذ عدة أيام فقررت أن أتصل بك ..

وقالت مغيرة الموضوع ، أو لعلها لم تفعل :

ـ .. يقولون إنك قد أصبحت صحفية شهيرة ..

هززت كتفى وقلت فى محاولة فاشلة للتظاهر بالتواضع :

ـ صحفية نعم ، شهيرة لا .. فمازلت أعمل تحت التمرين فى جريدة مستقلة ..

ثم إنى أردفت كأننى حكيمة الزمان :

ـ .. إن الصحافة هى المصير الطبيعى لمن يدرس فى كليتى كما تعلمين ..

وسددت نحوها الكرة ، سائلة قبل أن تتفوه بأى شىء :

ـ .. ماذا عنك ؟ ماذا تفعلين الآن ؟

قالت وامتعاضها يتعاظم ؛ ليس بسببى هذه المرة :

ـ سئمت من دراسة الآداب فتركت الكلية فى عامى الثانى ، والآن أدرس فى السنة الثانية بكلية الفنون الجميلة ..

لم أعهدها فنانة ، بل دعونى أجزم بكل صراحة ووقاحة أنها لا تمتلك أى حس فنى على الإطلاق ، هناك من يعتبر الذوق فى انتقاء الملابس ومضاهاة ألوان الماكياج بصبغة الشعر وارتداء الغريب المريب من الاكسسوارات فنا ، لكنى للأسف لست من هؤلاء ..

سألتها بلهجة ذات معنى واضح كأننى مذيعة (من سيربح المليون) :

ـ وهل هذا هو اختيارك النهائى ؟

صمتت مجددًا ، ولابد أنها لعنت فى سرها الفكرة الملحّة التي دعتها لمهاتفتى ، حتى أجابت بعدم اكتراث ؛ أتذكر جيداً أنه من أهم سمات شخصيتها :

ـ أنت تعرفين (باهى) ، من الصعب أن أستقرعلى شىء بسهولة ..

جيد أنها تعرف نفسها بهذا القدر ، وجيد أكثر أنها لاتخجل من مصارحة نفسها والآخرين ..

نصف البشر يقضون أعمارهم دون أن يعرفوا عن أنفسهم شيئاً ، والنصف الآخر يقضى عمره فى إنكار حقيقته أو الهروب منها ..

قلت مواصلة صراحتى القاتلة :

ـ أحيانًا يكون هذا الأمر عيبًا خطيرًا فى الشخصية ..

قالت مبادلة صراحتى بأقسى منها :

ـ إنه دومًا كذلك .. لكن ؛ من منا يقدر على أن يكون مثاليًا ؟

صدقت هذه المرة إلى حد لايسمح لى بمواصلة هجومى عليها ، هذا بالإضافة إلى أننى سئمت هذه الثرثرة النسائية التى لا تقود إلا لضياع الوقت فحسب ..

ـ ماذا كنتِ تقولين عن النادى ؟

سألتها ، فقالت :

ـ كنت أود أن أدعوك على الغداء فى النادى اليوم ..

أدهشنى عرضها ، ووددت لو أسألها (بأى مناسبة ؟) ، لكنى اكتفيت من التظاهر بالسخافة اليوم ، هناك حدود فاصلة لابد أن أتوقف عندها حتى لاتتحول سخافتى من أمر أختاره ؛ إلى أمر يلازمنى كظلى مهما حاولت الفرار منه ..

ـ النادى ؟

ندت عنى كأنى أستمهلها هنيهة للتفكير ..

برغم كل شىء لاتبدو فكرة قبول عرض (باهى) مستهجنة ، لابد للمرء من أن يجدد نشاطه ومن أن يعيد شحن بطاريات روحه بمناظر جديدة وأناس جدد وهواء جديد ، وأنا كدت أتحلل من جلستى لأيام طويلة فى المنزل بين كتبى وأوراقى وجهاز التلفاز المستفز ..

صحيح أنه لم تطأ قدماى أرض النادى منذ سنين كما أسلفت ، وبرغم هذا يحرص أبى ـ بارك اللّه فيه ـ على تجديد عضويته وعضويتى سنويًا ، كأنه سيتخلى عن عمله كما كان يفعل وأنا صغيرة ليصطحبنى إلى هناك مرة ..

ـ .. لِمَ لا ؟ لا تبدو فكرة سقيمة إلى هذا الحد ..

قلتها إعلانًا عن موافقتى المبدئية ، فهتفت بالإنجليزية :

ـ راااائع ، سيكون لقاءً عظيمًا بعد كل هذه السنوات ..

كبتت فى أعماقى مشاعر الشك تجاه رد فعلها المبالغ فيه ، ومحوت تساؤلاتى عن سر عرضها المفاجئ وبهجتها العارمة به ـ كأنها ستلتقى بـ (منى زكى) مثلاً ـ بممحاة الظن الحسن ..

(باهى) فتاة تعانى من بعض الاضطرابات فى جهازها العصبى المركزى يجعلها تبالغ فى أفعالها دون أن تعى ذلك ..

مسكينة ؛ هكذا فكرت و قدرت ..

قلت وأنا أرشف آخر ما تبقى فى كوب النسكافيه الصباحى الأثير :

ـ لن تجدى فىّ تغيرًا كبيرًا ، مازلت بشعر قصير وعينين عسليتين ونظارة طبية و ....

قاطعتنى هاتفة فى حماسة شديد :

ـ على النقيض تمامًا ستجديننى ..

ما زلت أذكر ملامحها ، الجسد الممتلئ والوجه المستدير والخدين المكتنزين والشعر الطويل الناعم كالحرير الطبيعى

والعينين الواسعتين السوداوين ، على النقيض منى تمامًا كما تقول ..

ـ .. انسى تمامًا ملامحى القديمة ، فسترين أمامك مخلوقة أخرى قادمة من الفضاء الخارجى .. تعرفين ولعى الدائم بالتغيير من إيقاع شكلى فى عيون الآخرين ..

لم أكن أستبعد هذا على أية حال ، لكنى غيرت الموضوع قائلة قبل أن أنسى :

ـ لدى شرط واحد قبل المجىء ..

ـ شرط ؟

سألتنى كأنها لم تتوقع منى قولا كهذا ، غير أنى قلت فى إصرار يليق بى :

ـ نعم .. شرط واحد ووحيد ..

ـ وهل باستطاعتى تنفيذه ؟

ـ بالتأكيد ..

ـ اعتبريه مقبولاً إذن على الفور ..

عدت لمداراة شكوكى وعلامات استفهامى ، وأخذت نفسًا

عميقًا قبل أن أقول فى أنفة ، كأننى ابنة الباشا فى فيلم عربى قديم :

ـ سأتولّى أنا دعوتك على الغداء ..

ضحكت (باهى) حتى استلقت على قفاها ـ لم أرها فى الحقيقة لكن هكذا قالت العرب ـ قبل أن تقول :

ـ لا عليك يا (نسرين) .. لا حساب لهذه الأمور بين الأصدقاء ..

قلت وقد تعاظمت أنفتى لتليق بالباشا نفسه فى نفس الفيلم :

ـ هذا هو شرطى ..

وأضفت وأنا أكاد أنفجر من الأنفة :

ـ .. الوحيد ..

ولم أقل لها إن سبب إصرارى هذا بسيط جدًا : لا أحب أن يكون لأحد فضل على ..

أى أحد ..

★ ★ ★

٢ـ صديقة جديدة ..

النادى بالنسبة لى ليس إلا مكانًا يقوم فيه الناس بالترويح عن أنفسهم عن طريق مشاهدة بعضهم البعض ، هذا لو استثنينا طبعًا ممارسى الرياضات المختلفة من المدعين والأفاقين !

من اخترع النوادى ؟

سؤال صعب ؛ لكنه شخص ما لم يجد ما يشغله بكل تأكيد ، فاستغل حاجة المجتمعات الإنسانية إلى التلاقى والتلاحم ، وقام بإنشاء هذه المؤسسة ؛ فقلده الآخرون ، لاعبين على وتر التفاهة البشرية ببراعة منقطعة النظير ..

هذه الخواطر (المريضة) وما شابهها هى بالتقريب ما جالت بخاطرى وأنا أخطو فى دروب النادى بين مقاعد الكافيتيريا ، وعلى الحشائش الخضراء اليانعة ، رانية ببصرى فى اشمئناط نحو الملاعب البعيدة تارة ، ونحو الكائنات الغريبة الرائحة والغادية من حولى ، متخذة أشكالاً شبه بشرية تارة أخرى !

لست من هواة المبالغة كما عهدتم فىّ ، لكن ماذا تسمون هذا الفتى الذى دهن شعر رأسه باللونين الأحمر البراق والذهبى اللامع هناك ؟! وماذا يمكن أن نطلق على تلك الفتاة التى ترتدى الجلد الأسود ، والتى تذكرنى ببطلات مسلسلات الخيال العلمى المصورة ؟! وماذا يمكن أن نقول عن ذلك الصبى الذى يطلق أغرب لحية رأيتها فى حياتى ، ناهيكم عن سالفيه الذين يكونان بدورهما لحية أخرى حول وجنتيه ؟! وأخيرًا وليس آخرًا ما رأيكم دام عزكم فى رهط الفتيات هناك ؛ واللاتى يضحكن بالصوت (الحياتى) إن أجاز المصحح اللغوى هذا التعبير ؟!

أنا أمقت هذا المجتمع المفتعل البراق من الخارج ، والمجوف من الداخل كتفاحة معطوبة .. حقيقة اكتشفت أنها لم تذو فى داخلى برغم مرور كل هذه السنوات !

النادى لم يتغير مع الزمن ، وكذلك رواده من هواة إزجاء الأوقات فيما لايفيد ، ربما بعض الملامح السطحية تغيرت ، لكن الجوهر ـ إن كان هناك جوهر ـ ظل على حاله ..

ـ (نسرين) .. هالووووو ..

نادتنى (باهى) من الناحية التى التفتّ نحوها ، أدركت صوتها وإن ذهلت حقًا لمرآها ..

اقتربت منّى فى ما يشبه الهرولة وبصحبتها فتاة أخرى ، وكلما دنت أكثر كلما أدركت كم كانت محقة عندما أخبرتنى أن ملامحها قد تغيرت تماما عمّا كانت عليه فى الماضى ..

إنها لم تعد تلك البدينة المكتنزة الوجه ذات الشعر الطويل والعينين السوداوين ، بل أصبحت رشيقة القد إلى حد لايصدق (الحميات الغذائية لها مفعول السحر أحيانا) ، شعرها قصير مقصوص على طريقة الصبى الفرنسية الشهيرة (يا له من مصفف شعر بارع) ، وعيناها تحولتا إلى لون غريب لم أدركه وربما لم أره فى حياتى مسبقاً (من اخترع العدسات اللاصقة ؟)

تصافحنا ، ولما أفقت من ذهولى قلت بنصف ابتسامة :

ـ مرحبًا !

ـ لم يتغير فيكِ شىء ، استطعت تمييزك من على مسافة مئة متر تقريبًا ..

قالتها (باهى) ضاحكة ، فهززت كتفى وقلت :

ـ أنا لم أستطع تعرفك حتى الآن ..

ضحكت مرة أخرى ، وتجاهلت قولى مشيرة إلى الفتاة الواقفة بجوارها :

ـ (مها) .. هذه (نسرين الجبالى) .. (نسرين) .. هذه (مها الباز) .. أنتما صديقتان لى أقوم بتعريفكما إلى بعضكما لتصبحا صديقتين و تتجاهلانى بعدها !

تركت (باهى) تتظارف ونظرت إلى (مها) مليًا ، ومن اللحظة الأولى أسرتنى ملامحها الملائكية الوديعة ، البريئة إلى حد الطفولة .. كانت تشبه القطة الوليدة ، صفحة وجهها بحيرة من مياه رائقة لم يعكرها إنسان منذ بدء الخليقة ، شىء ما فى وجهها يجبرك على التحديق فيه ؛ ربما لتدرك عظمة الخالق التى تتجلى فى روعة وبهاء خلقه ..

أومأت لى (مها) وهى تهمس :

ـ أهلاً ..

بادلت الإيماء والـ (أهلاً) فى تحفظ ، دون أن أستطيع رفع عينى عن وجهها الفينوسى الجميل ..

ـ أنت التى تكتبين تحقيقات جريدة (الأربعاء) : أليس كذلك ؟

سألتنى (مها) بصوتها الهامس الناعم ، وبرغم أن

سؤالها أدهشنى إلا أننى تمالكت نفسى بسرعة وأنا أجيبها فى تواضع لم يخل من رنين فخر :

ـ بلى ..

ـ تكتبين عن ذلك الرجل الغامض الذى يدعى ...

وصمتت محاولة التذكر ، فساعدتها :

ـ السيد (س) !

لا أجد تذكر اسم كهذا صعبًا على أى الأحوال ..

ـ نعم .. نعم .. السيد (س) .. قرأت لك تحقيقين على ما أذكر .. لوهلة ظننت الكاتب صحفيًا يتخفَى خلف اسم أنثوى مستعار ..

ـ هذا أفضل ممن ظنوا الكاتب آفاكًا محتالاً يختلق خياله البائس هذه المغامرات ..

ـ بصراحة ؛ لقد راودنى هذا الخاطر لوهلة !

ـ لم يعد هذا الأمر يدهشنى يا عزيزتى ..

وهززت كتفى مردفة :

ـ .. أنا نفسى لا أثق بأحد بسهولة ..

تدخلت (باهى) بالقول :

ـ عن (مها) فحدثى ولاحرج .. إنها كتلة شك متحركة !

أردت أن أقول إنها لاتبدو كذلك على الإطلاق ، لكنى أحجمت فى اللحظة الأخيرة ..

ـ .. معذرة يا (نسرين) إن كنت لا أقرأ تحقيقاتك ، أنت تعرفين ضحالة لغتى العربية ..

أردت أن أقول : والإنجليزية أيضًا يا (باهى) ، لا عليكِ يا فتاة ! ، لكنى أيضًا أحجمت فى اللحظة الأخيرة ..

إن (باهى) من الذين درسوا العربية كلغة ثانية وربما ثالثة طوال سنوات دراستهم الأساسية ، لا أظن أن شيئاً كهذا فى حاجة للشرح والإسهاب ..

سرنا بعدها فى طريقنا نحو حمام السباحة حيث فضلنا تناول الغداء على ضفته ، وكانت (باهى) تقول :

وفيم تقضين أوقاتك يا (نسرين) بينما لاتأتين للنادى ؟

أجبتها بما كنت أفكر فيه منذ لحيظات :

ـ أى شىء فى الدنيا أنفع من الإتيان إلى مكان كهذا.. فمنذ متى لم أطأه بقدمى ومع هذا أشعر بأنه لم يفتنى أى شىء على الإطلاق ..

قالت (مها) على استحياء هامس :

ـ يبدو أنك لا تمارسين أى نوع من أنواع الرياضة ..

كدت أخبرها برأيى فى ممارسى رياضات النوادى ، لكن (باهى) سبقتنى وقالت ماطة شفتيها :

ـ لعبت (التنس) بضعة شهور ثم أصابنى الملل ..

و تنهدت قبل أن تغمغم فى مرارة :

ـ .. تبًا .. كل شىء فى هذا العالم مقيت ممل ..

قلت مستنكرة عبارتها فى تهذيب :

ـ حاولى قهر هذا الشعور السلبى بداخلك ، فقد يدفعك يوماً لأبعد مما تتصورين ..

قالت مستعيدة عدم اكتراثها الخالد :

ـ ليدفعنى كما شاء أينما شاء .. لن أقاوم أى شئ من شأنه تغيير مجرى حياتى الراكدة كمستنقع ..

دلفنا عبر بوابة حمام السباحة وأنا أقول :

ـ قليلون هم من تتملكهم هذه الرغبة العارمة فى التمرد ..

قالت (باهى) ، وانتبهت إلى أنها تنظر نحو (مها) نظرة خاصة :

ـ أراهنك على أننا جميعًا نمتلك هذه الرغبة ، وإن كنا بارعين فى إخفاء مشاعرنا بطريقة نحسد عليها ..

هل تحمل عبارتها هذه رسالة ما لصديقتها التى التقيت بها للتو ؟

وما شأنى أنا ؟

لتحمل أو لاتحمل ، لست إلا عابرة سبيل سرعان ما ستعود أدراجها بعيداً عن هذا الجو اللزج المصطنع ..

مع هذا قلت وأنا أرمق (مها) التى تحاشت النظر نحونا ، متشاغلة بالنظر إلى الأجساد العائمة على سطح المياه المكلورة :

ـ لولا براعتنا هذه لقتل نصف البشر نصفهم الآخر منذ زمن بعيد ..

ابتسمت (باهى) ، ولابد أن ضحكتها لم تطاوعها فى شق عنان السماء وهى تقول :

ـ مازلت فيلسوفة بالفطرة كعهدى بكِ ..

قلت ونحن نجلس إلى منضدة خالية :

ـ أفضل هويتى كـ (صحفية) أكثر ..

وشددت على الكلمة بين القوسين ، فى حين سألتنى (مها) فجأة بعد أن استقرت فى جلستها :

ـ هل السيد (س) هذا شخصية حقيقية ؟

بوغتت بالسؤال ، ولما ابتلعته بصعوبة قلت :

ـ ليتنى أعرف ..

وتابعت بعد أن ألقيت بنظرة نحو المجهول :

ـ ... وحتى لو كنت أعرف ، فلن يتركنى ذكائى المحدود أكشف السر لأول سائل ..

أردتها على سبيل الدعابة والاعتذار ، لكن يبدو هذا المعنى لم يصل ، فقد قالت (مها) كأنها تستجوبنى فى تحقيق نيابة :

ـ هو مجهول الهوية إذن ..

ـ هذا هو سره وسحره ..

ـ تعجبنى جدًا فكرة الملاك الحارس هذه ..

ـ ليست فكرة بقدر ما هى حقيقة أجابها بين وقت وآخر ..

عقدت (باهى) حاجبيها وسألت فى ضيق :

عمّن تتحدثان ؟ من يكون (س) هذا ؟

لم أرد ، ولم ترد (مها) ، لاتجاهلاً منا ولكننا جميعًا بما فينا (باهى) التفتنا نحو مصدر النداء :

ـ صباح الخير يا فتيات ..

متحذلقٍ آخر يلوّث أذنى بلغته الأجنبية المفتعلة ، يقترب منا مبتلا بسروال استحمامه القصير ، فتنهض (باهى) وتبادل لغته المفتعلة بأخرى أكثر افتعالا ؛ وهى تصافحه هاتفة فى سعادة غامرة ، كأنها تصافح البطل الإغريقى (عوليس) شخصيًا :

ـ (شاكر) .. هاى .. كيف حالك يا رجل ؟

صافح (مها) التى اكفهر وجهها ، بينما عاودت (باهى) ما فعلته منذ قليل :

ـ (شاكر) ، هذه (نسرين الجبالى) .. (نسرين) ، هذا (شاكر مهران) .. أنتما صديقان لى أقوم بتعريفكما إلى بعضكما لتصبحا ...

يا للملل ..

صافحنى مبتسماً وهو يتساءل :

ـ (نسرين الجبالى) ؟ هل سمعت هذا الاسم من قبل أم أنا واهم ؟

لم أجبه ، وتولت (باهى) مشكورة هذه المهمة البغيضة عنى :

ـ (نسرين) صحفية من الجيل الصاعد ..

ـ حقًا ؟ فى أى جريدة ؟

ـ جريدة (الأربعاء) ..

ـ ماذا ؟ أى جريدة هذه ؟ هل هناك جريدة بهذا الاسم ؟

وأردف دون أن تزول بسمته التى لا أجد من الأوصاف السوداء ما يناسبها :

ـ .. عذرًا يا عزيزتى ، لأنى لا أعرف من الصحف غير (الأخبار) و(الأهرام) و(الجمهورية) ، وحتى هذه الصحف لا أقرؤها ..

وضحك دون أن يشاركه منا أحد ، كأنه يتباهى بمقولته ، وظلت (باهى) تحدق فيه بهيام فى حين تحاشت (مها) النظر نحوه تمامًا .. كأنه غير موجود من الأصل ،

وظلت (باهى) تحدق فيه بهيام فى حين تحاشت (مها) النظر نحوه تمامًا ..

وهـو سـلوك محمود من وجهـة نظـرى تجاه مخلـوق كهـذا ..

(شاكر مهران) هو أفضل نموذج على الإنسان المفتعل ، الإنسان اللا إنساني لو جاز لنا التعبير ، وسيم بفكين بارزين وأسنان نظيفة لامعة ورموش طويلة تغطى عينين خضراوين وشعر فـاحم طويل مسترسل يغطى قذالـه بأكملـه ، جسم عريض طويل بعضلات مفتولة بارزة وبشرة برونزية تلمع تحت ضوء شمس الظهيرة ..

إن كل ما فيـه لامـع وبـراق ونظيـف .. لـذا فهـو خـارج نطاق الإنسانية بمفهومها البسيط ..

من الصعب عليك مثلا أن تتخيل (شاكر) هـذا وهـو يركض للحاق بأوتوبيس ١٢٢ بشرطة ، ومن الصعب عليك أن تتخيله يشترى الخضراوات والفاكهة مـن السـوق ، ومـن الصعب عليـك أن تتخيله مصـابًا بآلام الإسـهال الحـادة .. والأمثلة أكثر من أن تعد ..

إنه لا يصلح إلا للعرض فى واجهات المجتمع لتنبهر به الفتيات السطحيات أمثـال (باهى) ، ولتشمئز منـه الفتيـات المثقفات أمثالى ، ولتتجاهله فتـاة مثل (مها) التى لا أدرى

حتى اللحظة ما هى علاقتها به ، و إن كان جليًا أنهما يعرفان بعضهما جيدًا إذ لم تتول (باهى) مهمة تعريفها كما يحلو لها أن تفعل منذ تعرفتها ..

ـ أنا الأخرى أعتقد أننى رأيتك من قبل ..

قال منتشياً بنفسه إلى حد الانفجار :

ـ أنا أمثل فى إعلانات التلفزيون ..

صاحت (باهى) وعيناها تلمعان فى إعجاب بين :

ـ نعم ، (شاكر) يرتـدى أحدث موضات الملابس فى إعلانات (كونكريت) ، ويكون مبهراً كعادته ..

قلت غير مخفية ضيقى من حديث (باهى) السافر :

ـ ربما ولكنى لا أعتقد ، فلست من هواة إضاعة وقتى الثمين فى مشاهدة التلفاز ..

عادت (بـاهى) تصيح بينمـا انتفخت أوداج (شـاكر) كطاووس أخرق :

ـ فى الصحف إذن ، إنه بطل الجمهوريـة فـى السباحة هذا العام ..

قال مؤمنًا :

ـ هذا صحيح .. والعام السابق والقادم أيضًا ..

قلت بلا مبالاة مقصودة :

ـ الرياضة أيضًا لاتأخذ أية أولوية فى قائمة اهتماماتى ..

إن ثأرى لايضيع بسهولة ، على هذا الوسيم السعيد بنفسه أن يدرك هذا جيدًا ..

لكن سؤاله فاجأنى :

ـ ماذا عن خطيبك ؟

رفعت إليه عينين صارمتين متسائلتين ، فوجدته ينظر إلى يدى اليمنى ، وبالتحديد أكثر إلى خاتم الخطبة الذهبى الملتف حول بنصرى ..

هكذا إذن عرف أننى مخطوبة ، كنت سأتضايق من (هشام) بشدة لو كان يعرف شخوصًا من هذه النوعيات العقيمة ..

ـ ماذا عنه ؟

سألته دون وعى منى ، ربما برد فعل منعكس ، فتمادى فى سخافته إلى أبعد الحدود :

ـ فى أى أولوية هو ؟

كدت أصيح فيه : وما شأنك أنت يا ؟ وأكيل له ما لذ وطاب من آيات السب العلنى ، ثم ألعن الساعة التى فكرت فيها فى المجىء إلى مكان موبوء بالعاهات كهذا ..

لكنى لم أفعل لحسن الحظ (حظه هو بالطبع) ..

كسوت وجهى بقناع شمعى لا انفعال فيه ، وقلت بكياسة تليق بفتاة تربت جيدًا :

ـ هذه أمور شخصية بحتة أفضل عدم الخوض فيها ..

شهقت (باهى) كأنها رأت عفريتًا من الجن ، وصاحت واضعة كفيها على وجنتيها :

ـ رباه .. تصورى لم أنتبه لخاتم الخطبة إلا الآن ..

ابتسم (شاكر) وهو يرمقنى فى تشف ، بينما واصلت (باهى) صياحها المجنون :

ـ من ؟ ومتى ؟ وكيف ؟ وأين ؟

احمر وجهى واشتعلت أذناى كجمرتين ، هأنذا مضطرة للخوض فى الأمور الشخصية التى أفضل عدم الخوض فيها ..

أولى لك ـ أيها الوسيم السعيد بنفسك ـ فأولى ..

ـ إحم .. فى الحقيقة .. منذ عدة شهور .. و خطيبى رائد فى المباحث الجنائية ..

ـ ولم تدعنى لحفل خطوبتك ؟

بدأت (باهى) تخرف حتمًا ، لابد أنها قد نسيت أننا لم نتحدث منذ سنوات ..

هذا عبث ما بعده عبث ..

أين أهرب الآن من عينى الوسيم السعيد بنفسه ؟ وماذا يمكن أن يقال لفتاة مختلة عقليًا مثل (باهى) فى مثل هذا الموقف الممعن فى السخافة ؟

نظرت نحو (مها) كأننى أستغيث بها ، وبالفعل أغاثتنى ، عن عمد ربما وبطريقة عفوية ربما ، المهم أنها نهضت فى هذه اللحظة بالذات قائلة ؛ وهى تنظر فى ساعة معصمها :

ـ عذرًا ، سأضطر للمغادرة الآن ..

سألتها (باهى) على الفور ، مواصلة نزقها المتحمس :

ـ إلى أين ؟

ـ أتمنى ألا تكونى تتهربين من دعوتى على الغداء ..

كنت راغبة بالفعل فى صداقة الفتاة ؛ فقلتها بصدق وامتنان خالصين ، لكنها ابتسمت فى وداعة ؛ وقالت :

ـ كلا بالطبع .. لكنى مرتبطة بموعد مهم جدًا للأسف ..

سألها (شاكر) باستخفاف :

ـ أهو ذلك الفنان المجنون ثانية ؟

اعترى ملامحها ظل كئيب وهى تقول فى غضب طفولى :

ـ من فضلك ، لاتطلق عليه هذا النعت المهين ..

هز كتفيه وقال بمنتهى اللزوجة :

ـ لست وحدى من يفعل هذا كما لاتجهلين بالتأكيد ..

وتطوعت (باهى) بتوضيح جزء من الصورة لى دون طلب منى ؛ فدنت من أذنى وهمست :

ـ إن (مها) تعمل كموديل عند رسام غريب الأطوار ..

سمع الجميع نبرة همسها العالى ، فتابع (شاكر) :

ـ تقصدين كانت .. لقد انتهت اللوحات التى يرسمها لها ، وافتتاح المعرض الليلة ..

هزت (مها) رأسها بالإيجاب وقالت :

ـ هذا صحيح ..

لماذا أشعر بأنهم يمثلون ؟ وأن كل شيء مصطنع ومفتعل مثل (شاكر) و(باهى) ومثل براءة ونقاء (مها) ذات العيون الحزينة ؟

مجرد أوهام فى رأسى المريض ؟

ربما ..

سألتها (باهى) :

ـ فيم ذهابك إذن وقد انتهت اللوحات ؟

صمتت (مها) قليلاً ، وشردت قليلاً ، وترددت قليلاً ، حتى قالت فى النهاية :

ـ تسويات معينة لابد من إنهائها ..

ثم إنها نظرت نحوى وقالت بأعذب ابتسامة رأيتها فى حياتى :

ـ .. سأكون جد سعيدة لو حضرت لافتتاح معرض اللوحات الليلة يا (نسرين) ..

ممتاز ، ها قد أسقطت التكليف بيننا ونادتنى باسمى مجردًا ، وكسبت اليوم صديقة جديدة ..

لم يكن أمامى إلا أن أقول :

ـ سيكون هذا من دواعى سرورى ..

ناولتنى بطاقة أخرجتها من جيبها ، وقالت ببسمة تتسع :

ـ الثامنة مساءً بأتيليه الفنون .. إياك والاعتذار ..

نظرت فى العنوان المدون فى البطاقة وقلت :

ـ سأكون هناك ..

لن يكون النزول إلى وسط البلد سهلاً فى هذا الموعد ، لكنى سأفعل أى شيء تطلبه منى هذه الفتاة البريئة الرقيقة الحالمة ..

أى شيء ، ولا تسألونى لماذا ..

ـ لعلى أيضًا من المدعوين ..

قالها (شاكر) وسخافته تبلغ ذروتها ؛ مستندًا براحتيه المبتلتين على الطاولة التى نجلس حولها ، فقالت (مها) بازدراء دون أن تنظر إليه :

ـ الدعوة عامة كما تعلم ..

وخاطبت (باهى) بقولها :

ـ .. لن أتأخر ..

غمزتها (باهى) وقالت :

ـ تحياتى للفنان ..

لم تقل (مها) شيئًا أكثر من :

ـ أستأذنكم ..

ومضت بعد أن رمت ناحيتى بسمة صافية تليق بصديقيتين جديدتين ..

ـ فى أى مجال تكتبين يا (نوسة) ؟!

نظرت نحو (شاكر) الذى جلس على مقعد (مها) الشاغر ، والذى سمح لنفسه بمنتهى الصفاقة أن يدللنى بهذا اللقب المريع ..

وأدركت أى كارثة بشرية أواجه ..

لم أرد ، فقد كان هذا أفضل بالتأكيد مما وددت قوله لحظتها ، لكن هذا لم يردعه ولم يفت فى عضده ، فتابع معتدلاً فى جلسته :

ـ .. ألا تفكرين فى إجراء حوار صحفى مع نجم سيسطع يومًا ما مثلى ؟

الأدهى أنه ربما يأخذ هذا الكائن اللزج مكان (مها) فى دعوة الغداء ، إنه لن يتورع عن فعلها فأنا أعرف هذه الأصناف جيدًا ..

ـ .. سيساعدك هذا كثيرًا فى مشوارك الصحفى ..

رباه .. أين السيد (س) لينقذنى من هذه المأساة التراجيدية المهلكة ؟

ـ .. ستفخرين يومًا ما بأنك أول من أجرى حوارًا صحفيًا مع (شاكر مهران) عندما كان لايزال فى طريقه نحو النجومية ..

ساعدنى يا إلهى ، وألهمنى الصبر ..

ـ ارو لها يا (شاكر) عن العرض السينمائى المقدم إليك ..

هذا ما كان ينقصنى يا (باهى) أنت الأخرى ..

ـ أيها ؟ العروض كثيرة كما تعلمين ؟

ـ أعتقد أن أفضل ما يمكن فعله الآن هو تناول الغداء ..

وسارعت أنادى النادل قبل أن يتفوه أى منهما بالمزيد ..

★ ★ ★

٣ـ الظـــلال ..

ـ المعذرة يا آنسة ..

قالها لى سائق سيارة الأجرة الشـاب ، وأشار بيده فى اتجاه الشارع المظلم الضيق ؛ المتوارى بيـن البنايـات العتيقة الشاهقة ـ المميزة لمنطقة وسط البلد ـ متابعًا :

ـ .. هذا هو الشارع المطلوب هناك ، وكما ترين .. فإنه أضيق من أن أستطيع ولوجه بسيارتى ، خاصة مع هذه السيارات الرابضة أمامه ..

لاحترمت تهذيب السائق وصراحته فنقدته الأجرة وزيادة ، ثم ترجلت وخففت السير نحو الشارع المظلم الضيق المتوارى بين البنايات العتيقة الشاهقة المميزة ... إلخ ...

ساعتى تشير إلى الثامنة إلا خمس دقائق ، وصوت السيدة (ألفت همام) يقرع كالطبل فى أذنى ، ويذكرنى بأنه :

ـ .. الصحفى الفاشل هو من يصل بعد موعده بقليل ، والصحفى النـاجح هـو مـن يصـل فـى موعـده بدقـة ، والصحفى اللامع هو من يصل قبل موعده بدقائق ..

ربما لا أكون قادمة الليلة بهويتى كصحفية ، لكنى أحب أن أطبق قواعدى المهنية فى كل مناحى حياتى ؛ مهما كلفنى ذلك من مصاعب وتحديات ..

إننى لم أغادر منزلى الليلة ضاربة بالمذاكرة عرض حائط الفشل ، ودون إعلام أحد بمغادرتى ـ أبى على سفر دائم أو عمل دائم ، وخطيبى على شجار دائم أو استفزاز دائم ـ إلا من أجلها ، تلك الفتاة التى دعتنى إلى معرض اللوحات صباح اليوم ..

هل سحرتنى ؟ هل نومتنى مغناطيسيًا ؟ هل سيطرت على دون أن أدرى ؟

ربما ..

كل ما أعرفه أنه لو أتتنى هذه الدعوة من شخص غيرها لرفضتها دون تفكير ، فاهتمامى بالفنون التشكيلية يكاد يساوى الصفر ، وحتى هذه اللحظة لا أعلم الفارق بين (رمبرانت) و(رينوار) ، وبين (جوجان) و(جويا) ، وبين المدرسة التكعيبية والتجريدية ، وبين الرسم بالزيت والرسم بالجواش ..

كل هذه مسميات مبهمة بالنسبة لى ، أسمعها أحيانًا فأقول لنفسى إنه ربما تتسع اهتماماتى فيما بعد لتشمل هذا النوع من الفن الراقى ، وتمر الأيام وتزداد المشاغل وتصهرنى الحياة فى بوتقة العدمية ، فتنكمش مساحة الأحلام داخلى وأتحول بالتدريج إلى إنسانة كبيرة ؛ فاقدة للقدرة على التفكير المجرد المتحرر كأغلب الكبار ..

ليس معنى هذا أننى لا أعلم المبادئ التى يعلمها أصغر طفل فى عصر العولمة ، مثل أن (الموناليزا) تحفة رسمها (دافنشى) فى عصر النهضة ، وأن (سلفادور دالى) بعينيه الجاحظتين وشاربه الرهيب هو أبو السريالية ، وأن (بيكاسو) الأسطورة الإسبانية هو مصمم حمامة السلام ، لكنها تبقى فى النهاية معلومات سطحية .. قشور لا تجعلنى أدعى أننى من عشاق الفن التشكيلى ، أو أننى من الناشطين فى متابعة حركاته ومعارضه وثوراته التى لا تنتهى ..

كنت راغبة بدافع خفى فى رؤية (مها الباز) مرة أخرى ، وراغبة أكثر فى التعرف إليها واكتساب صداقتها بطريقة أثارت ريبتى أنا شخصيًا ، ولست أملك ـ حتى الآن ـ تفسيرًا

لهذه الرغبة الملحة سوى : ربما أن القدر يدفع الإنسان إلى السير مرغمًا فى الطريق الذى يحدده له ، دون أن يعلم الإنسان المسكين المغلوب على أمره بذلك ..

وصلت إلى بداية الشارع المظلم الضيق ، وخضت بين أرتال السيارات المتراصة على جانبيه حتى إنها تسده تمامًا فى وجه أى سيارة قادمة ؛ سيارات متباينة تتراوح بين المرسيدس المتوحشة والجولف الرياضية والأوبل الرشيقة والدايو الأنيقة والفيات المسكينة !

فى منتصف الشارع تمامًا يقع المبنى الصغير المحشور بين المبانى العالية كأنه طفل يقف فى غابة عمالقة ، مبنى متهالك ـ لا أقول آيل للسقوط ـ من طابقين ؛ تضىء على واجهته لافتة (معرض الفنون) ، وفى المساحة الضيقة بين مدخله ومدخل البناية المواجهة له يتجمهر حشد من الجماهير المهتمة ..

دلفت إلى المبنى على الفور ، ولفت انتباهى أنه لم تكن هناك حراسة من أى نوع على بوابته الصغيرة ، أو ربما كانت هناك حراسة لكنها كانت فى نوبة راحة !

كان الطابق الأرضى عبارة عن قاعة واسعة لا تشى بأى أبهة أو أريحية ، أرض من خشب الباركيه القديم الذى لم يتم تنظيفه منذ عدة قرون تقريبًا ، حوائط تساقط بعض من طلائها برغم درر الفن التى تحملها فى إطارات جذابة ، ولمحت ببعض من قوة الملاحظة بعض العناكب التى عششت فى ركن هنا أو زاوية هناك ، لكن أكثر ما لفت انتباهى هو ذلك الملصق الكبير المعلق على العمود الذى يقابلك فور دخولك ..

معرض الفنون يقدم

الفنان (طارق شهبور)

ظـلال

تجربة فنية جديدة

ووقعت فى غرام هذا العنوان من النظرة الأولى ..

إن اختيار عناوين الأعمال الفنية فن مستقل بذاته ، وكم من مرة أحببت عملاً فنيًا ـ كتابًا أو فيلمًا أو مسرحية أو لوحة

أو قصيدة شعر أو قطعة موسيقية ـ من مجرد العنوان ، بغض النظر عن تفاصيل العمل نفسه التى تتكشف بعد ذلك ..

أنسانى هذا العنوان الجذاب حر المكان الخانق ، المتولد بفعل الكشافات العديدة المتناثرة عبره ، للتغلب على فقر المصادر الضوئية الأصلية فيه ..

تناولت بعض المطبوعات المتراصة أسفل الملصق على منضدة دانية ، مغطاة بمفرش نظيف ، وقررت أن أرى كل شىء بنفسى قبل أن أتصفحها ..

خضت فى بحر البشر ما بين متأنق ومهلهل الثياب ، كتمت أنفاسى حتى لا أتقيأ عندما باغتتنى روائح العرق ، ثم تشاغلت عن اشمئزازى بمزاحمة الواقفين المتسمرين أمام اللوحات ..

وتعلقت عيناى المبهورتان بآيات الجمال المعلقة على الحائط ؛ واحدة تلو الأخرى ..

أدركت كم يطابق العنوان مقتضى حال اللوحات ، وأدركت أيضًا ما معنى كونها تجربة فنية جديدة ، وإن كان ينقص إدراكى هذا الكثير من الثقافة والخلفيات المسبقة ، فمن أدرانى أن التجربة جديدة بالفعل ، وأنه لا يوجد فى تاريخ الفن من سبق الأخ (شهبور) هذا إليها ؟

التجربة ـ باقتضاب كما يلخصها عنوان المعرض ـ تدور حول الظلال ..

(الظلال ليست إلا انعكاسات فيزيائية لكيانات مادية ، ويعتبرها البعض النقيض الطبيعى للضوء ، لكن .. ألا يمكن أن يكون للظلال حياتها الخاصة وكينونتها المستقلة ؟ ألا يمكن أن نتعامل معها ككائنات حية لها قوانينها ومعادلاتها وعلاقاتها الدلالية المتعددة إلى ما لانهاية ؟) ..

هذا اقتباس مما خطه الفنان بنفسه فى واحدة من المطبوعات التى كنت أحملها وقتها ، ولعل هذا الاقتباس بدوره يوضح الكثير ..

من اللوحة الأولى فطها معى هذا الفنان كما فطها عنوان معرضه من قبل ، من اللوحة الأولى أسرتنى خطوطه وتشكيلاته وأفكاره ، من اللوحة الأولى أصبحت من معجبيه وتمنيت أن أراه لأشد على يده ؛ وأحييه على حساسية أصابعه وبراعة تكويناته ورهافة مشاعره الفنية ..

الظلال هى بطل اللوحات ، ظلال تكسو الجدران والمساحات والأشياء وتنبع من اللامكان ، ليست انعكاسًا لأجسام أخرى وإنما تمتد قائمة بذاتها ، تقف متفردة فى مواجهة الرياح

والشموس والبشر والشياطين وكل قوى الكون البيضاء والسوداء والرمادية ..

الظلال جميعها تحمل تكوينًا بديعًا لوجه يسكن أعماق روحى منذ الصباح ..

وجهها الملائكى الذى يقطر عذوبة وسحرًا وبراءة ..

(مها الباز) ..

وبراعة الفنان إنما تتجلى فى قدرته على تشكيل انفعالات هذا الوجه الوديع الساكن فى قلب الظل ..

فمرة هو حالم ناعس ، ومرة هو يائس بائس ، ومرة هو ضاحك مستبشر ، ومرة هو حكيم مفكر ، ومرة هو قادر متحد ، وانفعالات أخرى تجدها تتسرب فى بطء إلى داخلك ، لتعيد تشكيلك وفق هواها ، وهو أسمى ما يمكن أن يفعله الفن فى الإنسان ..

استفزتنى قليلاً تلك الأرقام الملصقة بإطارات اللوحات ، والتى استنتجت بسهولة أنها تعبر عن أسعار بيعها ، لكنى عدت أغوص مجددًا فى عالم الظلال الساحرة ، متجاهلة أن أقل سعر شاهدته كان يتجاوز العشرين ألف جنيه ..

حتى استوقفتنى تلك اللوحة بعينها ..

كانت أضخم اللوحات تقريبًا ، وكانت تحوى تشكيلاً عجيباً لذلك الظل ذى الملامح الجميلة على هيئة إعصار لولبى ، يهب على أرض تناثرت كل بيوتها وأشجارها وجسورها وسواقيها فى جميع الأنحاء ، وعلى جانبى اللوحة انتصب ظلان آخران أحدهما سعيد مغتبط والآخر حزين مكلوم ، كأنهما يمثلان أيقونة المسرح الشهيرة ..

لكن هذا كله لم يسترع انتباهى بقدر ما استرعاه ذلك التعبير على ملامح الظل الجميل ..

العينان متسعتان ، والفم مفتوح ، والخلجات تكاد تتحرك مرتعدة ..

ذهول ؟

أم هلع ؟

امتصتنى اللوحة تماما حتى خِلتُ أننى قد أصبحت جزءًا منها ، عندما اصطدم ذلك الشخص بكتفى ، فاستدرت نحوه عابسة ، ولم ينقذه منى سوى أنه أومأ لى برأسه ؛ ثم ألقى بعبارة لم أفهمها بالطبع نظرًا لجهلى التام باللغات الآسيوية

(هكذا قالت ملامحه ؟) ، لكنها فى الغالب كانت عبارة اعتذار ..

لم أرد أن أصعد الأمر لمستوى الأزمات الدبلوماسية فقبلت اعتذاره بإيماءة من رأسى ، وكدت أعود للوحتى الأثيرة عندما لمحتها وسط الزحام ..

(مها) ، صديقتى الجديدة ، فى ثوب مسائى رقيق جعلها أكثر فتنة وتلألؤًا ..

كانت تتجه ناحيتى لحسن الحظ فلم أضطر لمناداتها ، رسمت فقط بسمتى البلهاء على محياى وانتظرت أن تبدأنى هى بالسلام ، لكنها ـ لدهشتى الشديدة ـ مرت أمامى ببضع خطوات دون حتى أن تلتفت نحوى ، كأننى هباء منثور ..

ربما لم تلحظ وجودى فى هذا الزحام القاتل ، إنه عذر منطقى مقبول ، لكنه لم يكن يكفى وقتها لمنع الاحمرار من غزو وجهى ، ولردع الحرج عن الانتشار فى كيانى ..

ابتلعت الأمر بسرعة كأنه قرص (أسبرين) ، وفكرت من جديد فى العودة إلى اللوحة والتملى فيها ، لولا أن انزاح كتف عريض من أمامى ليكشف لى ـ من مسافة غير قريبة ـ عن (مها) ؛ التى وقفت بجوار فتاة أخرى ، تتبادل معها حوارًا هامسًا يسوده انفعال عدوانى أشبه بالشجار ..

هذه الفتاة الأخرى هى (باهى) صديقتى القديمة، وكانت ترتدى بدورها ثوبًا مسائيًا فاخرًا يبرز جمالها (إن هاتين الفتاتين تريدان أن تجعلا منى رجلاً متنكرًا فى هذه الليلة) ..

لم أتخيل أن وجه (مها) البرىء يمكن أن يحمل سمات قاسية كهذه التى يحملها الآن وهى تتحدث إلى (باهى) .. يبدو أن الأمر خطير، وأن الأخيرة تحاول تهدئة صديقتها المنفعلة دون جدوى، وأنها قد انتبهت أخيرًا إلى أن هناك من يراقبهما ـ أنا ـ بعينين نهمتين من بعيد، فرفعت عينيها إلى وقذفت نحوى بنظرة جعلت الإحراج يتفاقم فى داخلى أضعافًا ..

ما لى أنا وشجار هامس بين صديقتين ؟

كان السؤال كافيًا لأستدير على عقبى وأعود للوحة الكبيرة أتأمل فى تفاصيلها العبقرية، وبالفعل عادت اللوحة تمتصنى فى داخلها مجددًا، حتى أيقظنى هذه المرة صوت أعرفه :

ـ (عيون المها) ..

صوت (باهى) ..

ـ ماذا ؟

صدر السؤال عنى عفويًا وأنا أستدير لمواجهتها، لأراها

تقف خلفى عاقدة كفيها خلف ظهرها، وعلى وجهها بسمة مصطنعة لا أدرى لم ذكرتنى بالزهور البلاستيكية ..

ـ هذه اللوحة ..

قالت (باهى) ..

ـ .. اسمها (عيون المها) .. ألم تقرئى أسماء اللوحات فى المطبوعات التى تمسكين بها ؟

هززت رأسى نفيًا وأنا أجيبها :

ـ كلا، ليس بعد ..

واستدرت نحو اللوحة مجددًا وأنا أغمغم :

ـ .. لكنه اسم على غير مسمى بالمرة ..

هزت (باهى) كتفيها وقالت بلامبالاة :

ـ أنت تعرفين جنون الفنانين وولعهم بكسر قواعد المنطق ..

كادت اللوحة تمتصنى للمرة الثالثة على التوالى، لكنى وجدت (باهى) تقبض على ساعدى وتجذبنى خلفها قائلة :

ـ .. تعالى، سأعرفك على (طارق شهبور) ..

ـ لكن ...

ضاعت عبارتى فى الزحـام ، ووجدتنـى مسلوبة الإرادة أتبع (باهى) إلى حيث أوقفتنى ؛ وقالت ممارسة هوايتهـا الخالدة :

ـ (نسرين) .. هذا (طارق شهبور) .. (طـارق) .. هذه (نسرين الجبالى) ..

لم أصدق أننى أقف أمام الشخص الـذى أبدعت أصابعه هذا الفن الرفيع ..

بعبارة أدق : لم يكن من السهل أبداً تخيُل أن هذا الشاب الرفيع جدًّا ، الطويل جدًّا ، بشعره الكثيف جـدًّا ، وحاجبيه الكثين جـدًّا ، وذقنـه المطلقـة غير المشذبة ، وحلتـه غير المنهدمة ، ووقفتـه العصبية المهتزة ، ونظراته المسددة بعيدًا عنا ، هو نفسه من جعلنى أتسمر أمام لوحـاته طـوال الدقائق الماضية ، أنا التى تدعى دومًا أنهـا لا تتذوق الفـن التشكيلى ولا تجد فى نفسها له أى صدى ..

ـ أهلاً ..

قالهـا دون أن يتخلى عن اهتزازتــه العصبيــة ، وعـن شروده فى الجهة التى ينظر إليها برغم الزحام ..

وعلى الرغم منى نظرت نحو ما ينظر له ، وللمرة الثانية رأيتها ، بملامح ازدادت قسوة واكتسبت غضبًا مستطيرًا ؛ أتى على الكثير من رقتها الفطرية البسيطة ..

(مها الباز) أعنى بالطبع ، تقف هذه المرة مـع (شـاكر مهران) بنفس ملامحـه الشمعية المفتعلـة ، وإن زادتهـا أناقتـه المفرطـة وتصفيفة الشعر اللامـع والسلسلة الذهبيـة التى يقبض عليها بيده اليمنى ؛ افتعالا فوق افتعال ..

من الجلى أنه شجار هامس آخر ، أكثر حدة وانفعالاً هذه المرة ..

لكن فـى جميـع الأحـوال يبقــى السـؤال هـو السـؤال : ما شأنى أنا ؟

ـ مجهود رائع ذلك المبذول فى اللوحات يا سيد (شهبور) ..

لم يكن نطق الاسم سهلاً على لسانى ، لكنى لم أختره له بكل تأكيد ، هذا جناه جده على أبيه ..

نظر نحوى بجفنين نصف مسبلين ، وقال مخرجًا علبـة سجائر (مارلبورو) من جيب بنطاله :

ـ أشكرك ..

وعاد ينظر نحو الشجار الدائر فى الركن البعيد ، والذى ما برحت حدته تتزايد من جهة (مها) ، بينما (شاكر) يمارس نفس دور (باهى) تقريباً فى محاولة امتصاص غضب الفتاة دون جدوى ..

قالت (باهى) محاولة جذب انتباهنا عنهما عبثًا :

ـ (نسرين) صحفية يا (طارق) ، وربما ودت أن تجرى معك حواراً بشأن المعرض وتجربتك الفنية الجديدة ..

تبًا لك يا (باهى) ، هل أصبحتِ متعهدة توريد الحوارات الصحفية لكل من يرغب فى الإدلاء بحديث عن طريقى ؟

نفث (طارق شهبور) دخان سيجارته فى وجهينا معًا ، قبل أن يقول مشيحاً بيده :

ـ نعم .. نعم .. فيما بعد .. فيما بعد ..

وعاد ينظر إلى الشجار البعيد الذى بدا وكأن حدته قد بلغت أوجها ، فقد تحول همس (مها) إلى هتاف مسموع ، وإن استعصى على سماع العبارات بوضوح نظراً للزحام والهمهمات التى تملأ القاعة ..

مرة أخرى وأخيرة : ما شأنى أنا ؟

ومن جديد جاهدت (باهى) لتمنعنا من متابعة الأمر البعيد :

ـ هيا يا فنان .. لاتكن مغرورًا ..

واستدارت نحوى متابعة ؛ وقد فشلت فى التظاهر بالمرح فشلاً ذريعًا :

ـ .. تعرفين أن اعتزاز الفنان بنفسه قد يجعله يعزف عن الأضواء ويجتنبها كالإثم ..

لم أجد ما يقال ، أما (طارق) فقد عاد يشيح بيده هاتفًا دون أن يلتفت نحونا :

ـ أبدًا .. أبدًا .. ولكن ...

بتر عبارته ، وكادت عيناه تقفزان من محجريهما وراء (مها) ؛ التى بلغ بها الانفعال حد أن اندفعت مغادرة القاعة عبر منفذها الوحيد ، تاركة (شاكر) مضطربًا يضرب أخماسًا فى أسداس ، حتى حسم أمره وأسرع بالمغادرة هو الآخر فى إثرها ..

ـ .. استأذنكما للحظات ..

قالها (طارق) واندفع مغادرًا خلفهما ، تاركًا إياى و(باهى) تهرب من نظراتى المفعمة بالتساؤلات والشكوك ..

ـ لا أسمى هذا إلا جنونًا ..

أتـانى الصـوت النسـائى مـن جـانبى ، فالتفـت لأرى صاحبته التى تتحدث ببطء ووقار ..

ـ .. جنون الفن ..

سيدة فى أوائـل الأربعينـات تقريبًـا ، ترتـدى ثيابًـا أنيقـة منسجمة ألوانها إلى حد مبهر ، وتغطى شـعرها المصبوغ باللون الذهبى بقبعة ذات طراز فرنسى شهير ..

ـ .. أو جنون العشق ..

★ ★ ★

٤ـ الجـريـمـة ..

ـ لعلك تقصدين الاثنين معًا يا سيدة (هيام) ..

قالتها (باهى) ثم أوضحت أكثر :

ـ .. أعنى ، جنون عشق الفن مثلاً ..

لم تلتفت لها المرأة الوقور التى نمت قسماتها عن ملاحة لـم تذو بعد ، كأنه العبير الساكن فى قلب زهرة تذوى ، وقالت :

ـ أو جنون فن العشق ، أو عشق فـن الجنـون ، أو فـن جنـون العشـق ؟ مـن يستطيع أن يخبرنـا بالحقيقـة كاملـة يافتاة وله ما يشاء ؟

ونظرت نحوى المرأة أخيرًا ، فوجدتها (باهى) فرصـة ذهبية لـ ...

ـ سيدة (هيام) ، هذه (نسرين الجبـالى) .. صديقتـى وصحفية ..

يا لك من كائن ممل حقًا يا (باهى) ..

ـ .. (نسرين) ، هذه السيدة (هيام الميهى) ، إنها الراعى الرسمى لهذا المعرض بلغة أهل الاقتصاد ..

هززت رأسى فى تفهم وأنا أقول :

ـ شىء مطمئن أن تجد المواهب الدفينة من يكتشفها ويرعاها ..

قالت السيدة (هيام) وهى تجذب أطراف معطفها الخفيف :

ـ أعتبرها رسالة سيدات المجتمع الحقيقيات يا عزيزتى ..

قلت فى خبث لم أستطع إخفاءه :

ـ رسالة ، وربح ..

مطت السيدة (هيام) شفتيها وقالت ممتعضة :

ـ ليس كما تتصورين ..

لم تغادر الأرقام الفلكية المستقرة فوق إطارات اللوحات مخيلتى الطبقية بعد ، فقلت هازة رأسى مرة أخرى :

ـ لنقل إنه عائد مجز وكفى ..

تنهدت السيدة (هيام) ، ثم قالت كأنها تلقى بمحاضرة سريعة :

ـ انظرى يا فتاة ، إنه اتفاق غير مكتوب مبرم بين الفنان وراعيه منذ أبد الآبدين وحتى يرث اللّه الأرض ومن عليها ، للفنان الشهرة ولراعيه المال ..

ثم إنها صمتت هنيهة قبل أن تتابع :

ـ .. هل تستطيع البقرة أن تبيع لبنها بنفسها ؟

وقبل أن أقول شيئاً أجابت هى :

ـ .. بالطبع لا ..

قلت عن اقتناع :

ـ معقول ، لكن العدالة تبقى بعيدة ..

قالت بنفس الهدوء والبطء والوقار :

ـ كل مخلوق مهيأ لوظيفته فى هذه الحياة ، تلك سنة الكون لا تبديل لها ..

هززت رأسى أن نعم ، وبحثت عن شىء أقوله لكن رنين هاتف (باهى) المحمول كان أسرع من بديهتى العجفاء ..

ـ آلووووو ..

ترد (باهى) بنفس الامتداد الصوتى فى نهاية العبارة ..

ـ .. من ؟ آلووووو ..

يبدو أنها تعانى مشكلة ما ..

ـ .. معذرة .. مضطرة للخروج حتى أستطيع سماع محدثى ، فالإرسال الشبكى هنا سيئ للغاية ..

قالتها وهى تهز الهاتف فى يديها كأنها تستجدى الإرسال الشبكى أن يعلو ...

ـ لا مشكلة ..

قالت السيدة (هيام) ، وقلت أنا كأنى أستغيث بها من المجهول :

ـ لا تتأخرى ..

ـ دقيقة وأعود ..

وغادرت القاعة كلها بحثًا عن إرسال شبكى أفضل ..

ـ صحفية أنتِ إذن ..

بادرتنى السيدة (هيام) بالقول ، فقلت ممنية نفسى ألاتقودنى هذه البداية إلى اقتراح جديد بإجراء حوار صحفى مع أى إنسان :

ـ تحت التمرين ..

ـ غدًا تكبرين ..

قالتها بلامبالاة عجيبة ، ثم سألتنى :

ـ .. وفيم تكتبين ؟

ـ حوادث ..

لاحت بسمة شاحبة على شفتيها الرفيعتين المرسومتين بالطلاء ، قبل أن تقول :

ـ لا أرى تواجدك فى معرض لوحات فنية مناسبًا إلى هذا الحد ..

هززت كتفى وقلت فيما يشبه العناد :

ـ الحوادث تقع فى أى مكان وزمان ..

اتسعت بسمتها وإن ظلت فى نطاق الشحوب ، وهى تقول :

ـ لعلك تنتظرين حادثًا ها هنا إذن ..

قلت ما كان يتوجب على قوله من البداية :

ـ لست متواجدة هنا بصفة مهنية يا سيدتى ..

يمكننى بكل بساطة أن أعود إلى (عيون المها) وأتأمل فيها كما يحلو لى دون خوف ..

التمعت عيناها وهى تغمغم :

ـ من يدرى ؟

لم أفهم مغزى قولها ، وسارعت هى تقول مستعيدة سمتها الرزين الهادئ الوقور :

ـ .. يمكنك أخذ المزيد من المطبوعات كيفما شئت ، وإن أردتِ أية معلومات فستجدیننى فى الجوار دائمًا .. استمتعى بوقتك ..

وتركتنى متوجهة لرهط من الزوار المتأنقين الواقفين فى الجوار ، دون أن أنطق بكلمة واحدة ..

يوم عجيب ، هذا ما فكرت فيه ..

اليوم العجيب هو ما تصادف فيه هذه الأنماط من البشر ، وإلا فماذا يمكن أن يكون غير ذلك ؟

ماذا أفعل الآن حتى يعود الجميع ؟

يمكننى بكل بساطة أن أعود إلى (عيون المها) وأتأمل فيها كما يحلو لى دون خوف من المقاطعة ، ويمكننى أن أجول بين اللوحات الأخرى التى لم أرها بعد ، ويمكننى أن أتصفح المطبوعات التى تجعدت أغلفتها بين يدى ، ويمكننى أن ..

آه .. عذرًا .. إنه هاتفى المحمول هذه المرة يفسد على كل المخططات الممكنة ..

رفعت الجهاز إلى عينى، ليس رقم (هشام) كما توقعت ، وربما يكون هو ممارسًا ألاعيبه التقليدية فى إخفاء رقمه عندما يطلبنى ، ربما يريد أن يسألنى أين أنا ؟ ولماذا تركت المنزل دون أن أتصل أولاً لأخبره أو لآخذ منه الإذن ؟ وربما يكون رائق البال ويريد افتعال مشاجرة أخرى معى بسبب هذا الأمر ..

أبى ؟ كلا .. أشك أنهم فى (أمستردام) يمنحون الأطباء ميزة إخفاء رقم الطالب بهذه السهولة ..

صديقاتى ؟ استبعدت السؤال والجواب ..

ـ آلو ...

ـ صغيرتى ..

الصوت الأجش الذى يبدو وكأن صاحبه يتعمد تغييره ..

ـ أنت ؟

صحت بها لكن صياحى ذاب فى الزحام ..

ـ تعرفتِ علىّ بسرعة هذه المرة .. ذكية صغيرتى ولماحة ..

السيد (س) .. كارثة أخرى فى الطريق إذن ..

ـ ماذا هناك ؟

سألت ودقات قلبى تتسارع ..

ـ .. جريمة أخرى ؟

ـ لا تبعد عنك إلا خطوات قليلة كالمعتاد ..

وأضاف :

ـ .. جريمة على أعلى مستوى (فنى) ممكن ..

عادته الأثيرة فى التلاعب بالألفاظ ..

ـ هنا فى المعرض ؟

ـ بل على قارعة الطريق الخلفى ، داخل تابوت من الصفيح ..

ليس هذا الوقت المناسب للسؤال عن مقصده ..

سألته وأنفاسى تتسارع بدورها :

ـ فى الشارع المؤدى للمعرض إذن ..

تجاهل سؤالى وقال :

ـ أسرعى ، لا متسع من الوقت أمامك .. إن (جالاتيا) تلفظ الآن أنفاسها الأخيرة ..

سألته فى استفهام عصبى :

ـ من ؟

قال :

ـ (فينوس) ، إلهة الجمال الحزين ..

ازدادت عصبيتى وأنا أسأله :

ـ (مها الباز) ؟

لم يرد ، فنظرت نحو باب القاعة القصى وعدت أسأله :

ـ من الجانى ؟

سألنى بسخرية :

ـ طرح السؤال أصعب أم الإجابة عليه ؟

وجدتنى أصيح فيه :

ـ أنت مشارك فى الجريمة ..

لم يأتنى الرد ، فعدت أصيح معتمدة على همهمات الزحام فى إخفاء صياحى :

ـ .. إنك ترى كل شىء وتسمع كل شىء ويكون بوسعك منع الجريمة قبل وقوعها ، أو على الأقل تكون على علم بالقاتل ، ومع هذا تفضل ممارسة ألاعيبك هذه معى ؛ على القيام بواجبك تجاه العدالة ..

ساد الصمت لبضع ثوان ، قبل أن يقول السيد (س) بشىء من الأسى :

ـ ومن قال إنه بوسعى فعل أى شىء ؟

وسمعت تردد أنفاسه عبر أسلاك الهاتف قبل أن يضيف :

ـ .. لو كانت القدرة على الفعل من مزاياى ؛ لما اضطررت للاختباء خلف قناعك يا صغيرتى ..

سألته وعصبيتى تبلغ أوجها :

ـ ماذا تقول ؟ لست أفهم ..

جاءتنى ضحكته المجلجلة مجددًا ، وهو يقول :

ـ الأولوية للفعل لا للثرثرة .. هيا يا صغيرة فمساحة الوقت تتقلص ..

سألته فى رجاء أخير ، معاودة النظر إلى باب القاعة :

من أين تتحدث باللّه عليك ؟

ـ من أكثر أماكن العالم ظلامًا ..

وضحك ، ثم انقطع الاتصال ..

تركنى كما هو الحال دومًا ، ممزقة بين الفهم والغباء ، مزعزعة بين الفعل والتمنى ..

لكنى أرجأت كل هواجسى جانبًا ، ودون وعى منى ركضت نحو باب القاعة ..

★ ★ ★

أغلقت على نفسها باب السيارة (الجولف) السوداء ، نظرت فى مرآة السيارة فرأت سيارة أخرى تبتعد ، دمدمت فى غضب كاسح وأخرجت من حقيبتها علبة السجائر ..

نعم ، إنها تدخن برغم أنوف الجميع ..

أشعلت سيجارة (مارلبورو) ونظرت إلى ملامحها فى المرآة ..

لكم تكره هذه الملامح ..

نفثت الدخان فى المرآة فاختفى وجهها ..

أحست ببعض الراحة التى تلاشت مع تلاشى السحابة البيضاء ..

إنها تنتفض ..

كل خلية فى جسدها تكاد تقفز من مكانها ..

وتتفتت ..

تنسحق ..

تتلاشى فى العدم ..

إنها تتمنى لو انفجرت ؛ شظايا من نار تحرق كل ما حولها ومن حولها ..

وأول من سيحترق ، سيكون هى ..

تبًا لها وللجميع ..

ضغطت زر تشغيل مسجل السيارة ..

ليس هناك ما يدور بداخله ..

انحنت تفتح صندوق (التابلوه) ، وتبحث بين الشرائط عن أغنية تلائم حالتها النفسية ..

هناك الكثير مما يصلح لـ ...

.. فجأة سمعت باب سيارتها الخلفى ينفتح وينغلق ..

اعتدلت من انحنائها وهى تشهق فزعًا ..

خافت من أن تستدير برأسها للخلف ..

أرعبتها بشدة فكرة أن تجد أحدًا فى المقعد الخلفى ..

رويدًا رويدًا رفعت عينيها إلى المرآة التى تكشف الجزء الخلفى من السيارة ..

نظرت و ....

لم يكن هناك أحد ..

زفرت مخاوفها فى راحة ، لابد أنها العصبية التى تولد هذه الأوهام ..

عادت تنحنى على الشرائط المتراصة فى صندوق (التابلوه) ..

انتقت أغنية لمطربة تونسية تتحدى حبيبها أن ينساها ، فمهما هجرها ستظل تحتل عقله ووجدانه وأمنياته ..

دست الشريط فى المسجل فانطلق صوت المطربة النحاسى الرنان يغرد على إيقاع المقسوم وأنغام اللحن الراقص ..

تمايلت مع الكلمات ، بدأت تدندن عندما شعرت بشىء ما يحيط برقبتها ..

شىء بدأ يضغط بمنتهى العنف ..

بكل القسوة ..

والشراسة ..

أرادت أن تصرخ لكن الصراخ احتبس فى حنجرتها المخنوقة ..

اتسعت عيناها ..

لوحت بذراعيها عاليا وبقوة طلبًا للهواء ..

قاومت بأقصى ما تستطيع ..

لمحت وجهاً فى مرآة السيارة ..

وعرفته ..

لكنها ..

استكانت تمامًا فى النهاية ..

وهمدت كجثة ..

استكان رأسها فوق المقود ، واستمر الصوت النحاسى يجلجل داخل السيارة (الجولف) السوداء ..

اتفتح الباب الخلفى وانغلق مجددًا ، تسلل شبح أسود من السيارة ، وابتعد مستترًا بظلمة الشارع الخالى من البشر ..

وفور اختفائه عند ناصية الشارع ، ظهر عند الناصية الأخرى شبح آخر ..

شبح فتاة تهرول وتتفحص السيارات الرابضة واحدة تلو الأخرى ، حتى وصلت إلى (الجولف) السوداء ..

فرأت ، وفهمت ، وعلى الفور تحركت ..

كتمت صراخها ورغبتها فى البكاء والتقيؤ ، وسارعت تضغط أزرار هاتفها المحمول ، لتبلغ خطيبها ضابط المباحث الجنائية بأن هناك جريمة اكتشفتها بعد فوات الأوان ببضع ثوان ..

ولم تنتبه ـ ولم ينتبه أحد أبدًا ـ إلى ذلك الزوج من العيون ، الذى يراقب المشهد من بعيد ..

ذلك الزوج من العيون الذى رأى كل شىء ..

كل شىء ..

★ ★ ★

٥ـ ملامح ..

قال (هشام) وهو يشعل سيجارة رغبة فى إغاظتى :

ـ بدأت أسأم هذه القصة المعادة ..

عقدت ساعدىَ أمام صدرى ، وقلت راغبة فى نفس الأمر :

ـ لم أختلق منها حرفاً واحدًا ، ولست مسئولة عن شىء من أحداثها اللهم إلا روايتها لك ..

كنا نقف فى بداية الشارع المظلم الضيق المؤدى إلى (معرض الفنون) على مقربة من الـ (جولف) السوداء ، وقد امتلأ المكان برجال الشرطة والمعمل الجنائى ، داخل سياج أمنى يفصل مكان الحادث ـ الذى أبلغت عنه منذ دقائق ـ عن المارة والفضوليين ..

نفث (هشام) الدخان ، وهرش فى فروة رأسه قبل أن يقول :

ـ لم أقصد أنها ملفقة بالطبع ، وإنما ... وإنما ...

استبدت به الحيرة قليلاً ، فامتص المزيد من السم داخل رئتيه قبل أن يقول :

ـ .. وإنما برغم تكرارها الملفت للنظر ، ما زلت أجدها فكرة خارجة عن نطاق المعقول ..

قلت أذكّره :

ـ هذا لا يغير من كونها حقيقة أبدًا ..

زفر فى حنق مكبوت ، وألقى بنظرة على جثة الفتاة التى يخرجونها فى حرص شديد من السيارة ، ثم قال كأنه يفكر بصوت عالٍ :

ـ دعينا نستخدم العقل فى التفكير بشىء من المنطقية .. هناك شخص مجهول لانعرفه ، يقوم بين وقت وآخر بإرشادنا إلى جرائم وقعت وأحيانًا ستقع ، وفى كل مرة لايحرك هذا الشخص ساكنًا من أجل منع وقوع الجريمة ، بل ...

(لو كانت القدرة على الفعل من مزاياى ؛ لما اضطررت للاختباء خلف قناعك ..)

ـ .. بل يهاتفك أنتِ عوضًا عن ذلك ، ويدعك تتصرفين ..

(.. يا صغيرتى ..) ..

ـ .. هذا الشخص إذن يمتلك القدرة على معرفة كل شىء ، وهنا نجد الأسئلة تتوالى : من هذا الشخص الغامض الذى يتشبه بأبطال القصص الخيالية المصورة ؟ ما هى الصلة التى تربطه بكل الجرائم التى وقعت والتى سوف تقع ؟ وما صلته بك ؟

وهنا وصل (هشام) إلى النقطة التى أرادها منذ البداية ، فختم بسؤاله :

.. ولماذا ؟ لماذا خطيبتى أنا بالذات ؟

ليست اللحظة مناسبة على الإطلاق لهذه النزعة العطيلية (نسبة إلى عطيل بطل الغيرة القاتلة) المسيطرة على وعيك يا (هشام) ..

هززت كتفى وأنا أجيبه فى أسى عميق ، رانية ببصرى إلى المحفة التى قاموا بتغطية الجثة فوقها :

ـ ربما لأنى أعرف القتيلة هذه المرة ..

انعقد حاجباه ، وسعل ثم سألنى وقد صدمته هذه الحقيقة :

ـ تعرفينها ؟ منذ متى ؟

تنهدت وأنا أستحضر فى مخيلتى الملامح الملائكية العذبة البريئة ، ثم قلت وقبضة الألم تعتصر قلبى اعتصارًا شديدًا :

ـ منذ صباح اليوم فقط ..

ازداد عبوسه ، فتطوعت بالتفسير :

ـ .. عرفتنى إليها صديقة قديمة صباح اليوم فى النادى ..

وأردت أن أقول إننى أحببت (مها الباز) حقًا برغم أنى لم أعرفها إلا منذ ساعات ، وها هى ذى تتحول فى لحظة إلى جثة باردة متحجرة الوجه والأطراف كمثال حى على سخرية الحياة والموت منا ، لكن (هشام) لم يعطنى الفرصة ؛ إذ صاح فى وجهى كقنبلة مطاطية :

النادى ؟ هل ذهبت إلى النادى صباح اليوم ؟ ودون أن تخبرينى أيضًا ؟

مشكلة (هشام) أنه لا يحسن انتقاء الأوقات التى يفقد فيها صوابه ، وها هو ذا قد جعل منى فرجة لزملائه ولهواة الفن الرفيع الناظرين من بعيد ، أمام (معرض الفنون) ..

تحليت بالحكمة ـ ربما لأننى كنت مخطئة بالفعل ، ولمرتين على التوالى ـ وقلت فى رزانة تليق بالسيد (زرادشت) شخصيًا :

ـ سأروى لك كل شىء ..

وبالفعل ، رويت له كل ما حدث خلال الفصول الأربعة السابقة ، مع إهمال المقدمة طبعًا ..

أخبرته عن (باهى) و(مها) و(شاكر) و(طارق) وحتى السيدة (هيام) ، وحكيت له عما شاهدت داخل القاعة منذ قليل ، محاولة تذكر كل تفصيلة ممكنة ، ومحاولة انتقاء الألفاظ التى يصل بها المعنى المراد واضحا دون أدنى التباس ..

واستيقظ الشرطى فى أعماق (هشام) ، مزيحًا عن طريقه الطفل العنيد ، فضاقت عيناه وهو يرهف السمع لكل حرف أنطق به ، حتى فرغت ، ففكر مليًا ودخن كثيرًا قبل أن يغمغم متقمصًا شخصية المحقق الذكى :

ـ معنى هذا أن لدينا أربعة أشخاص غادروا القاعة تباعًا ، القتيلة ثم الشاب الرياضى ثم الفنان ثم صديقتك القديمة ، وهذا يجعل الشكوك تنحصر فى الثلاثة الأخيرين ..

قلت فى تذاكٍ :

ـ يمكنك استبعاد (باهى) فلا أظنها تفعل شيئًا كهذا ..

قال وقد استهواه دور (شيرلوك هولمز) إلى حد بعيد :

ـ الجميع مشتبه فيهم حتى يثبت العكس ، فما أدراك حتى الآن ما دافع الجريمة ؟

اقترب لحظتها أحد رجال المعمل الجنائى ، ممن يرتدون المعاطف البيضاء ، وهتف :

ـ أنهينا عملنا ، رائد (هشام) ..

التفت إليه (هشام) سائلاً :

ـ هل من نتائج إيجابية ؟

هز الرجل كتفيه وأجاب :

ـ لا توجد آثار عنف على السيارة ، القاتل تسلل فى الغالب عبر الباب الخلفى الأيمن وكمن فى أرضية الأريكة الخلفية حتى باغت القتيلة وخنقها بيديه العاريتين ..

غمغمت فى خفوت :

ـ يدين عاريتين ؟

بينما سأله (هشام) :

ـ وكيف استطاع فتح قفل باب السيارة من الخارج ؟

ـ الأقفال جميعها كانت مفتوحة ، فأبواب السيارة تفتح وتغلق مركزيًا ، و هى جميعها حتى الآن فى وضعية الانفتاح ..

ـ ماذا عن البصمات ؟

ـ رفع البصمات عن باب السيارة سيعد مضيعة للوقت ، إذ سنجد عشرات البصمات فوقها وقد يستغرق الرفع والبحث والمضاهاة عمرًا بأكمله ، خاصة وأنها لم تُغسل منذ فترة طويلة كما يشى مظهرها ..

ـ ألا توجد أية قرائن أو أدلة مادية أو ... ؟

ـ أدلة دامغة لايوجد ، وإنما وجدنا داخل السيارة شيئًا ..

ورفع الرجل بأصبعيه كيسًا من البلاستيك الشفاف ، يحوى جسمين صغيرين طوليين لونهما برتقالى بطرفين أسودين ..

ـ ما هذان ؟

سأل (هشام) وعيناه تضيقان أكثر لتمعنا فى محتوى الكيس ، فهزه الرجل وقال :

ـ عقبا سجائر (مارلبورو) ، وجدنا أحدهما فى أرضية المقعد الأمامى ، والآخر فى أرضية الأريكة الخلفية ..

واندلعت شرارة البرق فى عقلى على الفور ..

(.. نظر نحوى بجفنين نصف مسبلين ، وقال مخرجًا علبة سجائر (مارلبورو) من جيب بنطاله ..)

لكنى لم أتكلم ..

خفت أن يكون كلامى سابقًا لأوانه ، ثم إن فى الأمر نقطة أخرى لا أفهمها ..

ـ أرضية المقعد الأمامى ؟

هز الرجل رأسه إيجاباً ، وقال مجيبًا عن سؤالى :

ـ نعم .. لقد كانت هذه سيجارة القتيلة الأخيرة ..

سألته فى ذهول :

ـ غير معقول .. هل كانت تدخن ؟

كأنها لم تكن بشرًا .. أستغفر الله العظيم ..

قال الرجل فى صبر :

ـ أولاً : هناك علبة سجائر فى سيارتها ، ونادرًا ما يحمل غير المدخن علبة سجائر معه ، ثانيًا : عقب السيجارة لايزال دافئا ـ والآخر أيضًا ـ دلالة على أنهما كانا طازجين ، ثالثًا : هناك آثار تبغ على شفتى القتيلة مما يؤكد على أنها كانت تدخن قبل الوفاة مباشرة ، والطبيب الشرعى سيذكر هذه الحقيقة فى تقريره بكل تأكيد ..

سأله (هشام) :

ـ وهل يمكن أن نفترض أن عقبى السجائر هذين يخصان القتيلة ؟

هز الرجل رأسه نافياً هذه المرة ، وقال :

ـ هذا قد يكون غير وارد ، فعلبة القتيلة الموجودة بالسيارة كانت جديدة ، و لم ينقص منها إلا سيجارة واحدة فقط ..

نظر (هشام) إلى العقب الآخر بتمعن أكثر مغمغمًا ، وقد تقمصته روح (هولمز) لامحالة :

ـ إنها تخص القاتل إذن ..

أمر لا يحتاج إلى استنتاج يا سيادة الرائد ..

ولو نظرت مثلى الآن إلى هناك ، إلى الطرف الآخر من الشارع المظلم ، لرأيت الفنان النحيل الطويل (طارق شهبور) يخرج من باب القاعة ، والسيدة (هيام الميهى) تتأبط ذراعه ، ولرأيتهما يرسلان نحونا بنظرات أقل ما توصف بأنها : نارية ..

ولكنك ستتجاهل مثلى كل هذا ، وتحدق أكثر فى أصابع (طارق) الذهبية ، التى يتوهج بين اثنين منها طرف سيجارة (مارلبورو) ..

ووقتها ستجد الكثير من علامات الاستفهام المرتسمة أمامك عبر الأفق ..

وقد تجد أيضًا بعض الإجابات عنها ..

★ ★ ★

عدت إلى المنزل وبدأت فى فرز أفكارى وإحصاء شكوكى ورسم خطواتى القادمة ..

أحضرت أوراقًا وأقلامًا ، وبالخط العريض كتبت فى منتصف السطر :

الظلال ..

وبدأت أضع الخطوط العريضة لتحقيقى الصحفى التالى ، مسودات سأعيد كتابتها لاحقًا بعد أن تتضح الصورة أكثر ، وتستقر النقاط فى أماكنها الطبيعية فوق وتحت الحروف ..

لم أكد أبدأ حتى رن الهاتف ، وقبل أن يكمل حتى رنته الأولى كنت أرد ..

ـ هل تنتظرين مكالمة من أحد ؟

ـ أهذا أنت يا (هشام) ؟!

ـ أحيانا أشعر بالذنب تجاه نفسى إذ أهاتفك !

ـ لا تدع هذا الشعور يسيطر عليك فلن تستطيع أبدًا ألاّ تفعل ..

ـ يا للثقة العمياء ..

ـ أخبِرنى أن هناك جديد فى الجريمة ..

ـ لم نجد داخل المعرض إلا الرسام والسيدة التى ترعاه ، أما صديقتك هذه .. ما اسمها ؟

ـ (باهى) ..

ـ نعم .. هى .. اختفت تمامًا ولانجد للعثور عليها سبيلا ..

ـ ألم تجمعوا أى معلومات عنها ؟

ـ مازلنا نحاول العثور على رقم هاتفها أو عنوانها ، حبذا لو تساعدينا ..

ـ أعدك بالمحاولة .. ماذا عن (شاكر مهران) ؟

ـ بطل رياضى شهير مثله لن يكون العثور عليه بهذه الصعوبة ، سيمثل أمامى غدًا صباحًا للتحقيق ..

ـ لكنه لم يكن فى موقع الجريمة ولا قريبًا منها ، أليس كذلك ؟

ـ بلى .. عاد إلى منزله بعد أن غادر القاعة على الفور ..

ـ أو بعد ارتكاب الجريمة !

ـ من يدرى ؟ المهم أنك ستشرفيننا غدًا بالحضور فى تمام العاشرة لأخذ أقوالك كشاهدة ، إذ إنه بجوار كونك من اكتشف الحادث ، فأنتِ أيضًا من أفاد بحدوث المشاجرات الجانبية التى وضعت أيدينا على دائرة المشتبه فيهم ..

ـ سأكون عندك قبلها إن شاء اللّه ..

ـ شعور رائع أن يزين اسم رفيقة حياتك أغلب التحقيقات الرسمية التى تقوم بها !

ـ دعنى إذن أملأ حياتك بهذا الشعور !!

ـ لا تنسى البحث عن رقم هاتف صديقتك (ماهى) ..

ـ اسمها (باهى) ..

ـ ليكن ما كان ، هاتفينى إن وجدتِ ما يفيد ..

ـ سأفعل ، إلى اللقاء ..

وبدأت على الفور رحلة البحث فى متعلقاتى القديمة أعلى صوان ملابسى ، وبعد وقت طويل نسبيًا عثرت على فهرست قديم ، دونت فيه أسماء صديقاتى إبان المرحلة الإعدادية ..

ابتسمت فى حنين وأنا أقلب صفحاته المتآكلة الأطراف ، لكنى قاومت الذكريات عندما رأيت اسم (باهينام حمدى) يكلل هامة الصفحة الخاصة بحرف (الهاء) ، ومن فورى اتجهت إلى الهاتف و ضغطت الأزرار ..

انتظرت قليلاً ، حتى وافانى صوت المذيعة المسجل :

ـ هذا الرقم غير موجود بالخدمة ، من فضلك تأكد من الرقم المطلوب ..

غزت خيبة الأمل أعماقى ، وألقيت بالفهرست جانبًا ..

منطقى جدًا أن يكون رقم هاتفها قد تغير بعد كل هذه السنوات ، حتى وإن كان رقم هاتفى لم يتغير ..

تبًا لى ولحماقتى ..

كيف فاتتنى أن أسألها اليوم عن رقم هاتفها المحمول ؟

قاومت مشاعرى السلبية وقهرتها بسرعة ، وعدت أجلس إلى مكتبى لأفكر بشىء من النظام ..

قمت بتلخيص القضية كلها فى بضعة أسئلة :

١ـ هل القاتل هو (باهى) المختفية عن الأنظار حتى الآن ؟ والتى غادرت القاعة لعذر مقبول ؛ ألا وهو تعذر سماعها لمكالمة هاتفية ؛ نظرًا لسوء استقبال جهازها المحمول داخل القاعة ؟ وهل لشجارها الهامس مع (مها) علاقة بالجريمة ؟

٢ـ هل القاتل هو (شاكر مهران) الذى سارع بالمغادرة خلف (مها) ؟ ماسر سوء العلاقة بينهما كما لاحظت فى النادى ؟ وما علاقة شجار (مها) المحتدم معه بالجريمة ؟

٣ـ هل القاتل هو (طارق شهبور) الذى كان يراقب شجار (مها) و(شاكر) بمنتهى العصبية ؟ وهل عقب السيجارة الموجود بالأريكة الخلفية خاص به ؟

٤ ـ هل للسيدة (هيام الميهى) علاقة بالجريمة ؟ أم أنه محض شعور متجنٍ يعترينى دون مبرر تجاه هذه السيدة ؟

٥ـ أخيرا ، ما هى العلاقة الجهنمية التى تربط هذا الخماسى الذى رأيته وعايشته فى يوم واحد ؟ وماذا يمكن أن يكون الدافع وراء جريمة كهذه ؟

الحلقات الناقصة كثيرة ، والمعلومات شحيحة ، والتفكير على ضوء معطيات ضحلة كالتى بين يدى ليس إلا نوعًا من العبث ..

ما العمل إذن ؟

ببساطة لن أذاكر غدًا أيضًا ، فلدىّ مهمة عاجلة بكشف غموض هذه القضية ، وإماطة اللثام عن أركانها الخفية ، مع خالص الأمنيات بالاتصال العاجل من قبل السيد (س) ..

لماذا لايرن الهاتف الآن وأرد فأجده هو ، ويعطينى خيطًا رفيعًا أسير وراءه كالمعتاد ؛ حتى يظهر كل شىء وتتضح الحقيقة كاملة متكاملة ؟

لماذا لا تتحقق الأمنيات عندما نريد لها أن تتحقق ؟

لماذا ؟

تنهدت ، وبدأت أقلب فى المطبوعات الخاصة بالمعرض ، ورأيت على صفحة صورة فوتوغرافية نصفية لـ (طارق شهبور) ، مع ملخص لسيرته الذاتية وإنجازاته والجوائز التى حصل عليها ؛ فى مسابقات أقيمت فى (القاهرة) و(أسوان) و(باريس) و(روما) و(طوكيو) ، ورأيت على الصفحات التالية صور الظلال الشاحبة تكاد تقفز من على الصفحات المصقولة ، لتشهد بعبقرية وإبداع صانعها ..

واستوقفتنى من جديد (عيون المها) ..

حدقت فى تكويناتها ، واعترانى إحساس مختلف تمامًا عما رأيته فى المرة الأولى ، بل أنا أزعم أننى اكتشفت فيها أشياء جديدة ، ربما على ضوء المستجدات ..

الإعصار فى المنتصف ، الذى يشكل ملامح (مها) ، يحمل نفس التعبير الذى ارتسم على وجهها عندما رأيتها صريعة فى سيارتها السوداء ، كأنه نُسِخَ منه نسخًا ..

ولأننى لست معتوهة فأنا واثقة تماماً مما أقول ..

أكثر من هذا ، حدقت فى الملامح المرتسمة على الظلين الجانبيين ، ورأيت فى صاحب الملامح السعيدة وجه (شاكر مهران) ، وفى صاحب الملامح التعيسة وجه (طارق شهبور) نفسه ..

كلا يا سادة ، أنا لا أهلوس ولا أعانى وساوس قهرية ..

أتفق معكم فى أن الوجوه ليست مرسومة بهذه الدقة التى أدعيها ، والتى تتيح للناظر تمييز صاحبى الوجهين بسهولة ، لكنهما يحملان « روح الشكل » إن كنتم تفهمون ما أعنى ..

ماذا يقصد (طارق شهبور) بهذه اللوحة ؟

هل تنبأ بمصرع (مها) قبل أن يحدث ، وسجل نبوءته هذه فنًا ؟

وما معنى الوجهين المتناقضين انفعالاً ؟

عدت أحدق فى اللوحة ، وامتصتنى تمامًا هذه المرة ، حتى إننى لم أنتبه أبدًا إلى كونى أغرق ببطء فى محيط النوم ..

تذكرت شيئًا ما ، لكنى كنت أغرق ..

كيف نسيت هذا الشىء ؟ أغرق ببطء ..

ربما يكون فيه .. أغرق بـ ...

حلاً ما .. أغرق ..

لهذا اللغـ .. أغـ ...

.. ز الـ .. أ ..

...

★ ★ ★

٦ـ علاقـات ..

كنت جالسة أمامه ..

وكان يرسمنى ..

عيناى دائرتان من العشق والعسل ..

شعرى نهر من الحرير الأسود ..

بسمتى خلود وسحر وموسيقى ..

واسمى (موناليزا) ..

أما هو فلم يكن (ليوناردو) ..

لم أكن أراه ..

لم أكن أرى لوح الرسم الخشبى ..

لم أكـن أرى ضربـات الفرشـاة ولا (بالتـة) الألـوان ولاوجهى على (التوال) ..

لكنى كالمعتاد كنت أعرف أنه هناك ..

يقف فى قلب الظلام ، ويرسمنى ..

ـ هل انتهيت من اللوحة ؟

وكان يرسمنى .. عيناى دائرتان من العشق والعسل ..

كما عوّدنى ، يأتينى صوته بلا صوت ..

ـ لوحتى لا تنتهى ..

ـ مللت الجلوس كالصنم الأصم طوال هذه السنوات ..

ـ الملل لايعنى دائمًا القدرة على التغيير ..

ـ أريد أن أرى اللوحة ..

ـ اللوحة لم تنته بعد ..

ـ أريد أن أراها ..

ـ لوحتى لا تنتهى ..

هتفت فى حزم وتصميم :

ـ أرنى إياها و إلا سأنهض ، ولن أعود إلى الأبد ..

تردد ، ثم ..

ـ قد لايعجبك ما سترين ..

ـ من حقى أن أرى نتيجة تخشبى أمامك لسنوات طويلة ..

ـ لست بالفنان البارع برغم كل شىء ..

ـ هذا رأى كل فنان فى نفسه ..

ونهضت :

ـ .. سآتى وأرى اللوحة ..

ـ لأنسحب أنا إذن فى هدوء .. يا عزيزتى (جالاتيا) ..

وعرفت أنه غادر المكان ، برغم أنى لم أكن أراه من الأصل ..

اقتربت رويدًا رويدًا من اللوحة ..

دق قلبى فرحًا وحزنًا ، وخوفًا وطمأنينة ..

أمسكت بطرفى اللوحة ..

قلبتها نحوى ..

ورأيت ..

كان وجهى ، لكنه لم يكن وجهًا حيًا ..

(.. العينان متسعتان ، والفم مفتوح ، والخلجات تكاد تتحرك مرتعدة ..) ..

صرخت فى هلع شديد ..

و ...

★ ★ ★

سألنى (هشام) وهو يغوص فى مقعد مكتبه ، سعيدًا بكونه ضابط شرطة على ما يبدو :

ـ أما زالت هذه الأحلام تطاردك ؟

لست معتادة أن أخفى عن (هشام) شيئًا ، فبيننا صراحة مطلقة حتى فى أدق الأمور، لهذا فهو على علم بتلك الأحلام ـ أو الرؤى ـ التى تطاردنى دائمًا عندما أخوض غمار قضية جديدة ..

هززت رأسى أن نعم ، وقلت :

ـ الغريب أنها لاتطاردنى أبدًا إلا وأنا أخوض غمار قضية جديدة !

سألنى متصنعًا المكر :

ـ إنها بلا نهاية إذن ..

وتظاهرت أنا بالغباء فقلت ببراءة :

من يدرى ؟ إن عقلى الباطن ينشط فى هذه الأوقات عادة ..

عاد يمكر قائلاً :

ـ ماذا عن عقلك الواعى ؟

ـ فى اعتقادى أنه نشط دائمًا ..

قال عابثًا بفتاحة الخطابات على سطح المكتب :

ـ أتمنى ألا يفلت من يدك الزمام ، فتجدين نفسك فى آخر المطاف نزيلة مصحة نفسية ..

تجاهلت تعليقه المستفز ، وقلت أصارحه ونفسى :

ـ الغريب أننى أشعر بأن هناك خيطًا خفيًا يربط فيما بينها جميعًا ..

قال مغالبًا ضيقه :

ـ تقصدين تلك الظلال المتجسمة فى هيئة رجل ؟

ـ الظلال ، أو ما وراءها ..

ـ لاريب أن عقلك الباطن يقوم بتجسيد ذلك الغامض الذى يتصل بك فى هذه الهيئة ، فالظلال أقنعة تخفى ما وراءها ببراعة ..

ابتسمت وأنا أرمقه قائلة :

ـ أجدتَ التعبير حقًا ..

بادلنى الابتسام وقال فى دعابة :

ـ بداخلى شاعر لايستيقظ إلا حين تدعوه الحاجة ..

نظرت نحو ساعة الحائط خلفه ووجدتها تشير لما قبل العاشرة بدقائق ، فسألته على الفور :

ـ متى تبدأ فى استجوابى رسميًا ؟

ـ دقائق ويصل زميلى النقيب (باهر) ..

قالها و بسمته تتسع ، فسألته مستغربة :

ـ ألن تقوم أنت بالتحقيق معى ؟

ـ يمكننى فعلها ، إذ إنك حتى الآن لاتعدين قريبة لى بصفة رسمية ، لكننى اعتذرت بروتوكوليًا حتى لايؤخذ الأمر على محمل خاطئ من قبل بعض ضعاف النفوس هاهنا فى الإدارة ..

وهز كتفيه مضيفًا :

ـ .. فى النهاية ، أنتِ ما زلت خطيبتى حتى الآن ..

حملتنى عبارته على الابتسام مجددًا ، وقلت :

ـ أنت محق ..

ثم سألته مستنفرة كل حواسى :

ـ .. هل سارت التحقيقات والتحريات على ما يرام ؟

صمت قليلاً ومارس هوايته الأبدية فى اللهو بأعصابى ، ثم أجابنى بسؤال :

ـ هل وجدت أنتِ رقم هاتف صديقتك القديمة ؟

وجدت سؤاله يستحق الإجابة ، فقلت :

ـ ليس معى إلا رقم هاتف منزلها القديم الذى تغير حتمًا ، للأسف لم آخذ منها بالأمس رقم هاتفها المحمول ..

وعقدت حاجبىّ سائلة فى استنتاج :

ـ .. هل ما زالت مختفية حتى اللحظة ؟

أومأ برأسه إيجابًا ، و قال :

ـ استدللنا على عنوانها بـ (الدقى) وعلى رقم هاتف منزلها ، وأرسلنا إليها قوة من الرجال لكن أحدًا لم يكن بالمنزل ..

وقلت وعبوسى يزداد :

ـ ربما كانت بالداخل ولم تفتح ..

قال :

ـ فى مثل هذه الأحوال نقتحم المكان ، على الأقل خوفًا أن يكون ساكنه قد أصيب بمكروه ، وقد فعلنا ولم نجد أحدًا ، ثم إن البواب قال إنها غادرت البناية بالأمس ولم تعد ، و إنها لو كانت قد عادت لوجدنا سيارتها (الجولف) السوداء رابضة فى مكانها المعتاد !

ارتفع حاجباى دهشة وأنا أهتف :

ـ إنها سيارتها إذن ..

ـ لم نجد بالسيارة أوراق ملكية بالأمس ، لكننا كشفنا صباح اليوم عن رقمها فى إدارة المرور ، وهى مسجلة فعلاً باسم (باهينام حمدى) ..

غمغمت وقلبى ينبض بقوة :

ـ هذا يضع المزيد من علامات الاستفهام ..

ورفعت عينى أسأله مجددًا :

ـ .. وماذا عن أسرتها ؟ ألا يسكنون معها فى نفس المنزل ؟

لاح طيف مبتسم على شفتى (هشام) وهو يقول :

ـ يبدو أنها صديقة غير مقربة لك بالمرة ..

قلت موضّحة :

ـ أخبرتك أنى لم أرها منذ سنين إلا بالأمس ، وحتى فى تلك السنين البعيدة لم تصل علاقتى بها إلى درجة الحميمية أبدًا ..

هز رأسه متفهما ، وقال :

ـ هذا يفسر فعلا جهلك بأن والديها منفصلين منذ زمن بعيد ، وأنها كانت تقيم مع جدتها لأبيها حتى توفى الله الأخيرة منذ عامين تقريبًا ..

ـ وأين الوالدان ؟

ـ الأب يحمل الجنسية الأسترالية ويقيم هناك منذ عقدين من الزمن إلا قليلاً ، ويقولون إنه تزوج بأسترالية لهذا الغرض ـ الحصول على الجنسية أعنى ـ خصيصا ورزق منها بعدد من الأبناء ، أما الأم فقد هاجرت بدورها إلى الخليج بعد أن تزوجت بأحد أثرياء القوم هناك ..

مذهولة سألته :

ـ وتركا ابنتهما تعيش وحيدة ؟

قال ورنة الأسف الإنسانى تتسلل إلى حنجرته على الرغم منه :

ـ الجيران يقولون إنهما يتصلان بها من حين إلى آخر ، وإنهما يرسلان لها بالكثير من الأموال والهدايا عن طريق البريد ..

رق قلبى وصوتى وأنا أتمتم فى تعاطف :

ـ المسكينة ..

لم أتصور أبدًا أن تحمل (باهى) ـ المزركشة من الخارج كعروس المولد ـ فى دواخلها كل هذه الآلام ، وأنها تتجرع يوميًا كأس المرارة الممزوجة بالأحزان ..

مسكينة !

تردد الصدى فى أعماقى ، بينما قال (هشام) متابعًا سرد ما يعرف :

ـ يقول الجيران أيضاً إن صديقتها التى تقيم معها منذ بداية العام لم تعد بدورها ، وأنهما قد غادرتا المنزل معًا فى حوالى السابعة ..

ـ (مها) ؟

ـ يسهل استنتاج ذلك قطعًا ..

واستأنف مستطردًا :

ـ .. (مها الباز) هـذه قصة أخرى قضينا ليلة الأمـس كلها فى تجميع خيوطها ، فهى سكندرية الأصل ، أتت إلـى العاصمة منذ عامين لتدرس فى كليـة (الفنـون الجميلـة) ، وتعرفت (باهى) ، ويبدو أن الوحدة قد جعلت الأخيرة تعـرض عليهـا الإقـامة معهـا فى منزلهـا ، فوافقت (مها) مرحبة ربما بدافع الارتقاء إلى مستوى أفضل !

قلت مستفهمة :

ـ هلا فسرت عبارتك الأخيرة أكثر ..

اعتدل فى جلسته وقال :

ـ يبدو أن عبارتى الأخيرة التى أعتقد أنك قد فهمتها على الوجه الصحيح ، هى هاجس هذه الفتاة الذى يطاردها منـذ قررت النزوح إلى (القاهرة) .. لقد كانت طموحًا إلى حد كبير ، وكانت تجد فى نفسها أدوات الارتقاء وموهبة الصعود والتسلق على الفوارق الطبقية ، فقررت استخدامها حتى الرمق الأخير ..

استرجعت ملامحها الملائكية فى مخيلتى وأنـا أتمتـم مفغورة الفيه :

(مها) ؟!

لابد أن (هشام) قد قرأ أفكارى لحظتها حين قال :

ـ لا تثقى أبدًا فـى أصحـاب الوجـوه الملائكيـة البريئـة ، فالشيطان نفسه يمكن أن يختفى خلف قناع كهذا !

وقرأ فى عينىّ آلاف الأسئلة فعاد يستطرد :

ـ هل تتصورين أن هذه الفتاة تنتمـى إلـى أسرة فقيـرة فـى (سـيدى بشر) ؟ وأن أباهـا يعمـل بائعًا فـى كشـك لبيـع السجائر والمرطبات ؛ بعد خروجه على المعاش من وظيفته الحكومية البسيطة ؟ وأنها قبل أن تبدأ دراستها قد خيرته بين ترك هذا العمل الحقير بالنسبة لها ، وبين ألاّ يأتى لزيارتها أبدًا حتى لايجلب لها بزيارته العار ؟ وأن المـرة الوحيـدة التى حن فيها قلب الأب المكافح والأم البسـيطة لرؤية ابنتهما الكبرى ، فجاءا لزيارتها فى منزل (بـاهى) ، كـان الصياح والتهديد والباب المغلق هو مـا لقيـاه فـى وجهيهما ؟!

هتفت والذهول يقفز من مقلتىّ :

ـ (مها) ؟! غير معقول ..

امتعض (هشام) قائلاً :

ـ أكثر من هذا ، لم تكلف الفتاة نفسها مشقة الاتصال بأسرتها ولو لمرة واحدة طوال العامين الماضيين ، برغم أن لها أربعة أشقاء صغار أكبرهم ما زال فى المرحلة الإعدادية ، و أصغرهم لم ينطق كلمته الأولى بعد ..

لم يعد للحديث ولا للصمت ولا للذهول أى معنى أمام ما أسمع ..

أى دنيا هذه التى نحيا فيها ؟

أى قلوب هذه التى تمارس الوحشية الهمجية بهذه الصورة البشعة ؟

كيف خدعنى مرأى الفتاة ، وكيف أسرتنى برقتها وبنظرات عينيها ؛ فسعيت خلف صداقتها من اللحظة الأولى ؟

وكيف أخفت الأخرى ـ (باهى) ـ نبل تجربتها الإنسانية خلف قناع من اللامبالاة الدائمة ؟

لو يتريث الإنسان قبل أن يحكم على الشخوص ..

لو ....

ابتلعت ذهولى المؤلم كشوكة فى الحلقوم ، وخرجت عن صمتى لأقول :

ـ وهل تظن أن (باهى) يمكن أن تفعلها ؟

سألنى بدوره :

ـ وما المانع ؟

قلت بعد هنيهة من التفكير :

ـ كان يمكن أن تفعلها فى منزلها !

ـ ليس عذرًا قويًا لاستبعادها من دائرة الشبهات ، فلو فعلتها فى منزلها لكانت هى المتهمة الوحيدة ، ثم لاتنسى أن الحادث تم فى سيارتها ، وأنك بنفسك شهدت بحدوث مشادة بينهما داخل قاعة المعرض ..

ـ كان الشجار متأججًا حقًا مع (شاكر مهران) ..

قال ناظرًا فى ساعته :

ـ من المفترض أن يصل بين دقيقة وأخرى ، فقد أرسلنا لضبطه وإحضاره ، وقد أخطرونى بأنه الآن فى الطريق مع محاميه ..

قلت بلهجة ذات مغزى :

ـ الفتى مستعد جيدًا على ما يبدو ..

مط (هشام) شفتيه وقال :

ـ على الأقل هو ليس مختفيًا مثل صديقتك أو الفنان !

سألته فى دهشة عارمة :

ـ (طارق شهبور) مختفٍ أيضًا ؟

فسّر بقوله :

ـ أخبرتك أننا وجدناه بالأمس مع السيدة (هيام الميهى) المدير الفنى الخاص به ، كان من المفترض أن نلقى بالقبض عليه حتى يتم التحقيق معه صباح اليوم ؛ إذ إنه من ضمن المشتبه فيهم بتغييه ساعة وقوع الجريمة ، لكننا أفرجنا عنه بضمان محل إقامته ، واكتفينا بإخطاره بموعد التحقيق احترامًا لمكانته الفنية والأدبية ..

وزفر فى ضيق قبل أن يواصل :

ـ .. لكنه لم يحترم ما فعلناه معه ، فقد أرسلنا إليه رجالنا منذ قليل ، وأخطرونا لاسلكيًا أنهم لم يجدوا أحدًا فى مقر سكنه المدون بأوراقه الرسمية ، حتى بعد أن اقتحموا المكان وفتشوه بدقة ..

هتفت على الفور وقد أنار مصباح الأفكار فى عقلى :

ـ اسألوا عنه (هيام الميهى) إذن ..

قال (هشام) مثبطًا من همتى :

ـ هذا هو التصرف الطبيعى ، سنرسل إليها من يأتى بها بعد قليل ..

غمغمت بشىء من الوجل :

ـ ربما لا تجدونها فى مسكنها هى الأخرى ..

قال وقد ملّ من طول النقاش :

ـ إننا نفعل ما بوسعنا ، وندع النتائج لما بعد الفعل ..

ونظر إلى ساعته وهو يتساءل :

ـ .. ترى ؛ لماذا تأخر (باهر) ؟

قررت أن أصمت حفظًا لماء وجهى ، لكننى تذكرت أمرًا جعلنى أتراجع عن قرارى مؤقتًا :

ـ ألم يصادفك فى التحريات اسم غريب ؟

رفع نحوى عينين يعلوهما حاجبان مقطبان ، وهو يسأل :

ـ اسم غريب ؟

ونظر إلى بعض الأوراق أمامه ـ لابد أنها أوراق التحريات ـ متبعًا بسؤال آخر :

ـ .. مثل ماذا ؟

ـ (جالاتيا) ..

ـ ماذا ؟

سألنى باستنكار مستغرب فأعدت الاسم الذى قاله لى السيد (س) بالأمس فى الهاتف ، والذى أتانى فى الحلم ليلاً ..

.. ما هذا الاسم الغريب ؟

قالها (هشام) باشمئزاز كأننى ذكرت أمامه اسم (إرييل شارون) مثلاً ، وقبل أن أنطق بحرف ارتفع رنين الهاتف الخاص به ، فرد على الفور ..

ـ آلو .. (باهر) ؟ أين أنت يا رجل ؟ تتكلم من هنا من الإدارة ؟ جيد .. لم كل هذا التأخير ؟ لا عليك .. لا عليك .. المياه تنقطع كثيرًا هذه الأيام خاصة ونحن نستحم .. ها ها ها هاه .. خطيبتى تنتظرك منذ وقت طويل .. ستأتى الآن برفقة أحد الجنود .. لا تستخدم معها وسائل الاعتراف المؤلمة يا (باهر) .. ليس الآن .. ها ها ها ها ..

لم أكن أعرف مسبقًا أن خطيبى هو خليفة (حمادة سلطان) ..

نهضت وقد نسى كل منا ـ أو تناسى ـ أمر (جالاتيا) هذا ..

مؤقتًا ..

ضغط (هشام) زر الجرس المثبت بمكتبه فدلف جندى نحيف وقصير وأسمر ، أدى التحية العسكرية وأمره (هشام) بأخذى إلى مكتب الضابط (باهر) ، وبدا لى وكأنه يستمتع بإلقاء أوامره هذه استمتاعاً طفوليًا مريضًا ..

خرجت أمام الجندى ، ورأيته يدنو من آخر الممر البعيد ..

(شاكر مهران) وبسمته اللزجة التى تفوح تصنعًا وافتعالاً ، ومن خلفه رجل أصلع وقصير يحمل حقيبة جلدية ، يسهل استنتاج أنه محاميه من نظرته الثعلبية الحادة ..

نظر نحوى فبادلته النظرة بكراهية ..

ومضيت فى طريقى بكل أنفة ..

* * *

٧ـ جالاتيا ..

مضى التحقيق بسهولة ويسر ، فقد عاملنى النقيب (باهر) بمنتهى التهذيب واللياقة إكرامًا لصديقه (هشام) ، برغم عصبيته التى لاحظتها فى تعامله مع الجميع ..

وعرفت أن لـ (هشام) بعض الفوائد .. أحيانًا !

فور انتهاء الأسئلة التى وجهها النقيب (باهر) لى، وانتهاء النسكافيه الذى أصر على طلبه بحفاوة بالغة ، اتجهت إلى (هشام) مجددًا وكلى رغبة فى معرفة ما أسفر عنه التحقيق مع (شاكر) ..

بصراحة بالغة كنت أتمنى لو يتورط هذا الفتى المنتفخ بالغرور الأجوف فى القضية ، وبصراحة أبلغ فقد كنت أتمنى لو كان هو القاتل ، ربما كنت متحيزة لكن هذه كانت حقيقة مشاعرى لحظتها ..

ولدهشتى كان التحقيق معه قد انتهى ..

ـ بهذه السرعة ؟

أجابنى (هشام) وهو يدعونى للجلوس فى نفس المكان :

ـ لم يستدع الأمر أكثر من بضعة أسئلة ، لقد لقنه المحامى المحنك كل ما يمكن أن يقال بصيغة قانونية تنفى تورطه فى الأمر تمامًا ..

سألته دون أن أجلس (فكيف أجلس ودمى يغلى ؟) :

ـ ماذا قال ؟

نظر (هشام) إلى الأوراق أمامه ، وقلب فيها قائلاً :

ـ لا شىء أكثر من أن علاقته بالمجنى عليها لا تتعدى الصداقة البريئة ، وأنه تعرف عليها فى النادى عن طريق صديقة ثالثة ..

ـ (باهى) ؟

ـ هذه أيضًا قال إن علاقته بها لا تتعدى الصداقة ، وأنه يجهل حتى عنوان منزلها ..

سألته فى غل دفين :

ـ ماذا عن الأمس ؟

أجاب (هشام) ببساطة :

ـ قال إنه غادر المعرض بعدما فرغ من مشاهدة اللوحات ..

سألته ووجهى ينفجر احمرارًا دمويًا :

هل سألته عن شجاره مع (مها) ؟

ـ لقد نفى تمامًا أن يكون هناك شجار قد تم بينهما بالأمس ..

هتفت وقد طار صوابى :

ـ وصدقته ؟

قال (هشام) محاولاً تهدئتى ، فأثارت محاولته غيظى أكثر :

ـ لايمكننا افتراض العكس فى وجود شاهد إثبات واحد ..

صحت بغضب هادر :

ـ كل من كانوا فى المعرض شاهدوا الشجار ..

لم يعجبه صياحى ولانبرتى العالية بكل تأكيد ، لكنه حافظ على هدوئه حتى النهاية وقال :

ـ من هؤلاء الجميع ؟ إننا لانستطيع استجواب كل من كانوا فى المعرض بالتأكيد .. وحتى لو كان هذا ممكنًا فأخبرينى :

من يعرف (مها) و(شاكر) ليتذكر أو ليهتمّ برؤيتهما يتشاجران ؟

حاولت السيطرة على انفعالى ، لكنى فشلت وأنا أقول :

ـ أخرجتموه من دائرة الشبهات إذن ..

ـ ليس بعد .. لكن الأدلة جميعها ضعيفة ، ولا تشير نحو أحد بعينه أكثر من الآخر ..

قلت وأنا ألهث كعدّاءة فى ماراثون :

ـ اسألوا (طارق شهبور) ، لقد كادت عيناه تخرجان من محجريهما وهو يتابع الشجار المحتدم ..

قال كأنه يُسكت طفلاً عنيدًا :

ـ فكرة وجيهة حقًا ..

قاومت فكرة أنه يريد أن يُسكتنى فحسب ، فسألته وأنا أسيطر على أعصابى بصعوبة :

ـ هل وجدتم (هيام الميهى) فى منزلها ؟

قال متشاغلاً عنى بالنظر فى أوراقه :

ـ سنرسل لها بقوة تحضرها بعد قليل ..

ـ متى ؟

ـ ربما ساعة .. اثنان .. أكثر .. هناك أمور روتينية قد تطول ..

ـ ألا يمكن أن تعطينى عنوانها ؟

سألته ناظرة إلى أوراق التحريات القريبة ، فغطاها بكفه قائلاً فى لهجة لا تحتمل الجدال :

ـ للأسف لا .. هذه تحريات رسمية محظور الإفشاء بها لأى إنسان ..

ونظر إلى مضيفًا بنفاد صبر :

ـ .. مهما كان !

قضى الأمر ..

(هشام) يريد منى أن أكتفى بهذا القدر من الأسئلة والمضايقات ، بل ويتمنى فى أعماقه لو غادرت المكتب فورًا ، وأنا سأحقق له رغبتيه ..

لكن .. ليتحمل هو كل النتائج ..

هل مقدور علىّ يا ربى أن أفعل كل شىء بنفسى ؟!

★ ★ ★

من أين أبدأ ؟

فى (معرض الفنون) لم أجد ضالتى ، سألت الموظفة الوحيدة البائسة هناك :

ـ هل يمكننى أن أحصل على عنوان السيدة (هيام الميهى) من فضلك ؟

نظرت إلى فى بلاهة ، وسألتنى :

ـ من هذه ؟

قلت وأنا أظن أننى أوضح لها الأمور :

ـ مديرة أعمال الفنان (طارق شهبور) ..

سألتنى فى غباء أشد :

ـ من هذا ؟!

ـ أشكرك ..

قلتها وانصرفت من أمامها على عجل ، فهى تسألنى عن صاحب الاسم الذى يملأ أنحاء المكان ؛ مطبوعًا على ملصق من الورق المصقول ..

كانت اللوحات قد غادرت أماكنها فوق جدران القاعة

الواسعة ، والمكان استحال إلى ما يشبه قصرًا مهجورًا تسكنه أشباح وموظفة وحيدة بائسة ، وفكرة البحث عن عنوان السيدة (هيام) تلح على بشدة ..

لست أفهم حتى الآن ما سر شعورى بأن لهذه المرأة يدًا عليا فى الجريمة ؟!

برغم أننى لا أعرف إن كانت هناك علاقة ما تربطها بـ (مها الباز) أصلاً ، إلا إنه شعور غامض مبهم ليس له من سبب واضح ..

مجرد حدس قد يصيب وقد يخيب ..

ماذا أفعل الآن ؟!

أحياناً ـ بل دائمًا ـ تكون البساطة أم الجمال ، ويكون أقصر طريق بين نقطتين هو الخط المستقيم ..

اتجهت على الفور إلى ذلك المحل التجارى الذى يشرف على شارع (طلعت حرب) ، وأمسكت بسماعة الهاتف الذى وضعه صاحبه للاستخدام العام المدفوع الأجر ، هاتفة :

ـ سأستخدم الهاتف من فضلك ..

أومأ لى صاحب المحل برأسه ، فضغطت على الفور الرقمين الخاصين بخدمة (الاستعلامات) ، طالت بى الوقفة قليلاً وأنا لا أسمع شيئاً غير الرنين ، كررت المحاولة عدة مرات حتى بدأ صاحب المحل يتململ ، ورد على صوت فى النهاية :

ـ آلو .. استعلامات ..

ـ من فضلك ، أريد رقم السيدة (هيام الميهى) ..

ـ لحظة من فضلك ..

غاب الرجل عدة ثوانٍ قضاها بالتأكيد فى إدخال الإسم على جهاز الكمبيوتر ، ثم أتانى صوته فى النهاية سائلاً :

ـ (هيام ممتاز الميهى) ؟

لم أكن واثقة من صحة الاسم لكنه أفضل من لاشىء ، فقلت :

ـ أجل ..

أملانى الرقم فسجلته على ذاكرة هاتفى المحمول ، وشكرت الرجل ثم شرعت فى إجراء مكالمتى الثانية على الفور ..

الرنين المتواصل من جديد ، ثم صوت نسائى يرد :

ـ آلو ..

هذا ليس صوتها على ما أعتقد ، لكنّى مع هذا سألت :

ـ منزل السيدة (هيام الميهى) ؟

ـ أجل هذا هو ..

لكنة المرأة الريفية تقول إنها الخادمة ، لكنى يجب أن أتأكد ..

ـ هل أنت السيدة (هيام) ؟

ـ كلا .. هل أناديها لك ؟

الاحتمال يتصاعد بأننى وجدت ضالتى المنشودة ، ومع هذا ـ وإمعانًا فى التأكد ـ عدت أسأل :

ـ نعم .. إن أذنت ..

ـ لحظة من فضلك ..

وغابت المرأة ، فتبادلت نظرة مع صاحب المحل الذى أخذ ينظر فى ساعته الرقمية ليعد كم استهلكت من الوقت ، ويمنى نفسه بحصيلة وافرة ..

ـ آلو ..

إنها هى ، رنة صوتها مازالت تسكن ذاكرتى منذ الأمس ..

ـ السيدة (هيام الميهى) ؟

قلتها محاولة أن أجعل نبرة صوتى أكثر غلظة حتى لاتتعرفنى ، ويبدو أننى قد نجحت إلى حد ما فقد سمعتها تقول :

أجل .. من معى ؟

قلت مختلقة الحيلة على الفور :

ـ أنا رسامة هاوية ، كنت أود عرض أعمالى عليكِ لترى إن كانت تصلح للعرض العام .. أخبرونى أنك تحتضنين المواهب الفنية الجديدة ..

ـ يمكنك أن تأتى إلىّ فى الجاليرى الخاص بى ، الدور الثانى من (الفرست مول) بـ (الهرم) بعد الثامنة مساءً !

اختلقت العذر على الفور :

ـ للأسف قد لا أستطيع هذا ، فقد جئت من (الفيوم) ولابد لى أن أسافر قبل غروب الشمس ..

وتجرأت فسألتها :

ـ .. ألا يمكننى أن أقابلك فى منزلك الآن ؟ لن آخذ من وقتك أكثر من خمس دقائق ..

صمتت فقلت أحثها :

ـ .. ربما أقل !

أتانى جوابها فى النهاية :

ـ ليكن .. إننى أنتظرك ، ولكن لا تتأخرى فأمامى موعد مهم بعد نصف ساعة تقريبًا ..

ـ سأكون عندك قبل حتى أن تغلقى السماعة ..

لم تضحكها دعابتى وقالت :

ـ هيا لا تضيعى الوقت ..

تجاهلت استسخافها وقلت متنحنحة :

ـ .. إحم .. هلا أعطيتنى العنوان من فضلك ..

صمتت مجددًا ، وخفت أن تراجع نفسها وترفض ، لكنها قالت فى النهاية :

ـ ٣٣ شارع محمد أنيس ، الزمالك .. لا تتأخرى ..

وأغلقت السماعة ، فى حين سارعت أنا أشير لسيارة أجرة مارقة ، ليفاجئنى صياح صاحب المحل الهادر من خلفى :

ـ حساب الهاتف يا آنسة ..

* * *

فتحت لى (هيام الميهى) الباب بنفسها ، وكانت فى كامل أناقتها كأنها على وشك مغادرة المنزل بالفعل ..

ـ كنت أعلم أنه أنتِ ، صوتك مميز مهما حاولتِ تغليظه ..

اعترانى حرج لم أشعر بمثله فى حياتى وأنا أقف فى مواجهتها كفرخ مبتل ، لم أكن قد جهزت ما سأقوله وتركت مهمة إدارة الموقف للظروف اللحظية ..

قلت :

ـ فى الحقيقة اضطررت لاختلاق قصة الرسامة هذه خشية ألا تستقبلينى عندما تعرفين هويتى ..

قالت وهى توسع لى مكانًا للدخول :

ـ لقد خانك تقديرك ، لولا تمييزى لصوتك لما أعطيتك العنوان ، فأنا لا أقابل الفنانين فى بيتى على الإطلاق .. تفضلى ..

ودلفت إلى منزلها الذى أبهرنى كل شبر منه ..

كان تحفة فنية حقًا ، آية فى الجمال والذوق والرفاهية ، نافورة فى المنتصف وتماثيل ولوحات ومقاعد تتناغم نقوشها وألوانها فى سيمفونية فنية عذبة ؛ عذوبتها تجعلك تقشعر ..

دعتنى للجلوس فجلست ، وبادرتنى هى بالقول ضاربة كفًا بكف :

ـ صحفيتنا العزيزة قد وجدت حادثتها إذن ..

تذكرت حوارى معها بالأمس فقلت :

ـ نبوءتك لم تخطئ يا سيدتى ..

قالت وهى تخرج شيئًا من حقيبة يدها :

ـ كان مقدرًا أن يحدث ما حدث ، ولم يخرج كلامى معك عن نطاق الثرثرة العادية ..

ومدت نحوى هذا الشىء مواصلة :

ـ سيجارة ؟

يا إلهى .. (مارلبورو) ؟

تحكمت فى انفعالى وأنا أقول لها :

ـ أشكرك ، لا أدخن ..

قالت وهى تضع طرف اللفافة بين شفتيها اللتين رسمهما الطلاء بدقة :

ـ هذا أفضل ، ما زلت صغيرة على الإصابة بالسعال المزمن أو سرطان الرئة ..

سجلت المعلومة ، وبدأت هجومى على الفور :

ـ هل كنتِ تعرفين القتيلة يا سيدتى ؟

أشعلت السيجارة بقداحة أنيقة يتآلف لونها مع لون ملابسها وزينتها ، ونفثت الدخان لتسألنى فى تهكم :

ـ هل هذا تحقيق رسمى ؟

قلت مبسطة الأمر :

ـ بل مجرد ثرثرة عادية تشبه ما تم بيننا فى الأمس ..

نظرت إلى ثم قالت :

ـ فى الواقع أنا لا أعلم عنها أكثر من أنها تعمل كموديل عند (طارق) .. رأيتها أكثر من مرة فى مرسمه ؛ هذا كل ما فى الأمر ..

سألتها ضاغطة على حروف سؤالى :

ـ تقصدين بيته ؟

ـ بل مرسمه ..

قالتها بمنتهى الثقة ، فعدت أسألها :

ـ وأين مكان مرسمه هذا ؟

سألتنى مستعيدة جرس التهكم فى لهجتها :

ـ هل ما زال الحديث داخل نطاق الثرثرة العادية ؟

وقبل أن أرد ، سألتنى :

ـ .. ماذا تشربين ؟

ورفعت عقيرتها بنداء الخادمة :

ـ .. يا (فايقة) ..

حضرت المرأة الريفية بسرعة ، فطلبت منها كوبًا من الماء فقط ، وأمرتها سيدتها بأن تحضر لى كوباً من عصير البرتقال الطبيعى ..

مضت الخادمة ، ونظرتُ إلى السيدة (هيام) نظرات متشككة وأنا أسألها :

ـ مم تحاولين حمايته يا سيدتى ؟

ضحكت ضحكة أجادت افتعالها ، وقالت :

ـ أحميه؟ أحمى من؟(طارق)؟ مما يمكن أن أحميه؟ ولماذا؟

قلت مواصلة هجومى بلا هوادة :

ـ لو كنت أملك دجاجة تبيض لى ذهبًا ، فلن أتوانى عن حمايتها بكل ما أوتيت من قوة ونفوذ ؛ من أى خطر يتربص بها مهما بدا ضئيلاً ..

أشاحت بيدها كأنها تقول (دعك من هذا الكلام الفارغ) ، وقالت بعد أن نفثت الدخان :

ـ لا تربطنى بـ (طارق شهبور) أى علاقة تتجاوز العمل ..

قلت :

ـ هذا صميم ما أتحدث فيه ..

سألتنى محولة وضعها من الدفاع إلى الهجوم :

ـ إلام تلمّحين يا فتاة ؟

أجبرنى سؤالها الصريح على تحويل دفة الحوار إلى :

ـ هل تعرفين (باهى حمدى) يا سيدتى ؟

ـ أعرفها ، رأيتها هى الأخرى فى مرسم (طارق) ..

ـ و (شاكر مهران) ؟

ـ لا أجهله فهو يطل علينا عبر صفحات الجرائد ومن خلال شاشات التلفزيون بكثافة ..

ـ هل تظنين أن أيًا منهما يمكن أن يكون القاتل ؟

أجابت فى لباقة :

ـ وبماذا يمكن أن يفيد ظنّى من عدمه ؟ إنها مهمة أجهزة الأمن ؛ الشرطة والنيابة ثم القضاء ، إننى أنتظرهم الآن ..

ـ من ؟

ـ رجال الشرطة ، سيجيئون لأخذى حتمًا بين ثانية وأخرى ..

ـ هل أخبروك ؟

ـ بل محض استنتاج ، سمّها نبوءة إن كنت تطلقين على ما قلته بالأمس نفس الاسم ..

هذه المرأة تعرف الكثير ، وتتستر على الكثير خلف قناعها الصارخ بالزينة ..

وقررت فى هذه اللحظة بالذات أن ألقى فى وجهها بقنبلتى الأخيرة :

هل تعرفين (جالاتيا) يا سيدتى ؟

وكأنما لدغها عقرب شرس ، انتفضت فورنكرى للاسم ، ورفعت نحوى عينين مشتعلتين بالنيران مع ارتفاع نفير سيارات الشرطة ؛ القادم عبر شرفتها الواسعة المطلة على الشارع ..

ساد بيننا الصمت الرهيب ، وكدت أتلاشى أمامها من الرعب لكنى استطعت التماسك حتى اللحظة الأخيرة ..

أتى البرتقال المعصور ، وارتفع طرق رجال الشرطة على الباب ، والصمت لايزال سيد الموقف بيننا ..

غير أنها نهضت أخيراً ، لتقول لى وقد تآكلت نبرات صوتها :

ـ أعطنى رقم هاتفك المحمول ، فسيكون بيننا حوار طويل لاحقًا ..

ولم يكن من الممكن أن أرفض طلبها أبدًا ..

ـ سيدتى ، هناك رجال شرطة عند الباب ..

قالت الخادمة الريفية ، فالتفتت لها (هيام) وغمغمت :

ـ أخبريهم أنى قادمة ..

وعادت تنظر نحوى متممة :

ـ .. تستطيعين الانصراف متى شئت ، اعتبرى المنزل منزلك ..

ومضت ، فى حين انحنيت أنا أبحث عن قلبى الذى سقط منى داخل حذائى ..

★ ★ ★

٨ـ هذيان ..

توسطت شمس الظهيرة سماء الربيع الصافية ، وأنا أجتاز مدخل حمام السباحة فى النادى ..

سألت أول شاب رأيته يرتدى ملابس الاستحمام :

ـ هل رأيت (شاكر مهران) اليوم من فضلك ؟

نظر نحوى مليًا ، قبل أن يقول :

ـ كان هنا منذ ثوان معدودة ..

سألته لأتأكد :

ـ هنا فى حمام السباحة ؟

قال مبتسمًا :

ـ أجل ، يتدرب للبطولة المقامة فى الشهر القادم ..

عدت أسأله :

ـ وأين يمكن أن أجده الآن ؟

أشار إلى باب أزرق قريب وهو يقول :

ـ فى الغالب ذهب إلى هناك لتبديل ملابسه ..

شكرته وتركته ، وسمعت هتافه من خلفى :

ـ .. دخول هذا المكان مقصور على الرجال فقط ..

ولم أسمعه يميل على زميل له هامسًا :

أرأيت ؟ كل الفتيات يسألن عن (شاكر مهران) .. (شاكر مهران) فقط ..

فى غفلة من الناس والزمن تسللت عبر الباب الأزرق .. يحتاج الأمر إلى بعض الجرأة والكثير من الحذر والجنون ، وفى الصفة الأخيرة بالذات (نسرين الجبالى) خارج المنافسة ..

ولحسن الحظ لم يكن هناك من اعترض طريقى فى الداخل ، وعرفت لماذا قصروا الدخول على الرجال فقط ، فهاهنا تقع غرف الرياضيين حيث يبدلون ملابسهم ، وحيث يغتسلون من الكلور الذى يملأ مياه المسبح بماء نقى عذب ..

لم يكن هناك أحد فى هذه الساعة لحسن الحظ ، ولايخترق سمعى غير صوت دش مفتوح ينصب منه الماء بشدة ، أما الإضاءة فشحيحة تبعث على الرعب حتى تبدأ عيناك فى الاعتياد عليها ..

عرفت طريقى بين الغرف والخزائن والدكاك الخشبية الواطئة ، حتى وجدت حقيبة زرقاء خفيفة تتوسطها علامة (أديداس) العالمية الشهيرة ..

كانت تستقر وحيدة على دكة خشبية فى نهاية ممر نصف معتم ، ولما دنوت منها ميزت حرفين لاتينيين مطرزين على جانبها العلوى الأيمن ..

حرفى (SM) ..

وببساطة شديدة يسهل استنتاج أنها تخص (شاكر مهران) ..

دنوت منها أكثر ، وفتحتها ثم بدأت أقلب فى محتوياتها ..

لايوجد أكثر من بشكير ، سراويل استحمام قصيرة ، بعض علب الفيتامينات المقوية ، و ....

يا للهول ..

علبة سجائر (مارلبورو) ..

(شاكر مهران) أيضًا ؟

ـ هل تبحثين عن شىء بعينه ؟

دنوت منها أكثر ، وفتحتها ثم بدأت أقلب فى محتوياتها ..

كدت أبتلع روحى مع شهقتى الشديدة ، واستدرت دون وعى منى لأجد (شاكر) واقفًا خلفى بنفس الابتسامة اللزجة المصنوعة ، عاقدًا ساعديه القويين أمام صدره العارى ، بينما يغطى بشكير عريض نصفه السفلى ، مما يدل ـ مع شعره الملتصق برأسه مثل (أنور وجدى) فى الأفلام القديمة ـ على أنه فرغ من حمامه من فوره ..

استغرقت عدة ثوان حتى أستعيد رباطة جأشى ، وإحقاقًا للحق فقد صبر على (شاكر) دون أن ينفك ساعداه أو تتلاشى ابتسامته ، حتى رفعت علبة السجائر فى وجهه ؛ هاتفة فى تقطيب :

ـ هل هذه العلبة تخصك ؟

ضحك منتشياً قبل أن يقول :

ـ هل تعشقين التدخين إلى الدرجة التى تدفعك للبحث عن السجائر فى حقائب الآخرين ؟

قلت فى غلظة :

ـ هذه ليست إجابة ..

قال وقد ترك ساعداه ينهالان على جانبيه :

ـ نعم .. إنها علبتى ..

سألته وغلظتى تزداد :

ـ أنت تدخن إذن ؟

قال وهو يتناول علبته من بين أصابعى فى يسر :

ـ هذا سر فيما بيننا .. رجاء لاتنقلى الخبر إلى إدارة النادى أو اتحاد السبّاحين ..

فشلت فى التخمين ما إذا كان جادًا أم هازلاً ، لكنى وجدته يشعل سيجارة ، ويسألنى بعد النفس الأول :

ـ .. هل أتيت إلى هنا لمجرد كشف حقيقة تدخينى ؟

جيد أنه قد فتح الحوار ..

ـ فى الواقع كلا .. إنما كنت أبحث عن (باهى) ..

قطب وهو يتساءل فى هدوء :

ـ (باهى) ؟ وما الذى جعلك تتصورين أنك يمكن أن تجديها هاهنا ؟

قلت وقد سعدت لنجاحى فى نزع البسمة من فوق شفتيه :

ـ جئت أسألك إن كنت تعرف مكانها ..

سألنى وحاجباه يزدادان انعقادًا :

ـ ولماذا أنا بالتحديد ؟

ـ بدوتما صديقين حميمين أمامى بالأمس ..

ـ لو كنت أعرف مكانها لأدليت به فى التحقيقات ..

شئ غريب .. لماذا أستشعر صدقه الآن ؟

كلا .. إنه ممثل بارع ، ولن أتركه يسيطر علىّ ويخدعنى بانفعالاته الكاذبة ..

سألته بلهجة اتهام واضح :

ـ ولماذا كذبت فى التحقيقات بشأن شجاركما أمس ؟

تجمد وجهه فجأة ، وقال بصوت معدنى أخافنى :

ـ أنت إذن من وشى بالأمر للشرطة .. كيف فاتنى أن أتوقع هذا ؟!

وانقضّ علىّ فجأة !

طوقت أصابعه رقبتى ، فلم أستطع أن أصرخ ، ولم أر أمامى إلا عينيه اللتين اتسعتا فى شر ، وسمعت صوته الهامس يتسلل إلى عقلى كالفحيح :

ـ بإمكانى أن أقتلك الآن ، لكنى لن أفعل ..

وتركنى أنهار مكوّمة فوق الدكة الخشبية ، أسعل وأتحسس رقبتى كأننى أتأكد من وجودها فى مكانها ، بينما تابع هو :

ـ .. انزعى من رأسك تمامًا فكرة أن أكون أنا الفاعل .. إن أمامى مستقبل واعد لن أغامر بضياعه من أجل فتاة ..

ونظر نحوى فى ازدراء مكمّلاً :

ـ .. أى فتاة كانت !

تحاملت على نفسى ونهضت ، سرت بعيدًا عنه بعد أن أغلق بينى وبينه كل سبل الحديث ، غير أن الزمار يموت وأصابعه تلعب ، فقد تذكرت فى النهاية أن أستدير نحوه لأسأل بصوت مبحوح :

ـ هل تعرف (جالاتيا) ؟

استدار نحوى سائلاً فى استفهام :

ـ من ؟

كررت بنبرة أعلى لكنها ظلت مبحوحة :

ـ (جالاتيا) !!

طفق يفكر قليلاً قبل أن يقول فى حسم :

ـ لم أسمع بهذا الاسم مسبقًا طوال حياتى ..

والغريب أنى للمرة الثانية على التوالى ، وبرغم موقفه العدوانى الصارخ معى ، شعرت بأنه يقول الصدق !

* * *

تناولت آخر ما تبقى من شطائر (الطعمية) الساخنة ، وألقيت بالكيس والأوراق المتسخة فى صندوق القمامة الكبير القائم فى نهاية شارع (محمد أنيس) بحى (الزمالك) ..

نظرت فى ساعتى ، إنها الخامسة والنصف عصرًا ولم يجد بعد جديد ..

سأعطى لنفسى نصف ساعة أخرى ثم أعود بعدها إلى المنزل ، صحيح أننى أهدرت من وقتى نصف يوم كامل ؛ لكن ما زال فى الإمكان الاستفادة ـ بأى شكل ـ من النصف الآخر ..

السيد (س) لم يتصل ولم يظهر .. لماذا ؟

هل يعانى هو الآخر فى كشف السر مثلما أعانى ؟

هل تعانى الظلال مثلما يعانى بنو البشر ؟

أعجبتنى الفكرة الفلسفية فاستغرقت أحللها وأمنطقها ، حتى لاح هدفى عند الناصية الأخرى من الشارع الضيق ..

الحمد لله ، لن أضطر للانتظار نصف ساعة أخرى ، ولا للعودة إلى المنزل بخفى (حنين) الذائبين ..

اختفيت خلف صندوق القمامة وظللت أراقبها ، كانت (فايقة) ـ خادمة السيدة (هيام) الريفية ـ تقف على الطوار حاملة عمود الطعام الشهير بيد ، وتشير لسيارة أجرة بيدها الأخرى ..

وفور ركوبها ، سارعتُ بالظهور وأشرتُ لسيارة تالية ، دسستُ نفسى فيها وأنا أصيح بسائقها على الفور ، على طريقة أفلام (الآكشن) العربية :

ـ اذهب خلف تلك السيارة من فضلك يا أسطى ..

كان السائق ـ لحسن حظى ـ شابًا متحمسًا فيه الكثير من الرعونة ، فنهبت عجلات سيارته الأرض خلف (فايقة) ، حتى انتهى بنا المطاف فى (المهندسين) ..

هبطت من السيارة ونقدت الشاب الأرعن المتحمس أكثر مما طلب ، وانتظرت أمام البناية التى اختفت (فايقة) فى إحدى شقق طابقها الثالث ، مرت عشر دقائق تقريبًا حتى

هبطتْ ـ دون عمود الطعام طبعًا ـ وأشارتْ لسيارة أجرة تعود بها ، ولما اختفتْ عند نهاية الشارع صعدت أنا وكلى أمل فى أن تصيب توقعاتى ..

طرقت باب الشقة ، وكدت أطير من السعادة وأنا أصيح بالإنجليزية :

ـ نعم ..

.. عندما ظهر وجه (طارق شهبور) من خلف الباب ، مغيبًا شاردًا كأنه استيقظ من نومه حالاً ..

ـ مساء الخير ..

همستُ بها فى أدب ، فهتف (طارق) بى كأنه لم يرنى من قبل :

ـ من ؟!

قلت بمزيد من الأدب :

ـ إحم .. فى الحقيقة .. أنا (نسرين الجبالى) .. لقد التقينا فى المعرض بالأمـ ...

قاطعنى سائلاً ومحدقًا فى المجهول كأنه لا يرانى أمامه من الأصل :

ـ ماذا تريدين ؟

قلت والأدب يبلغ بى مبلغه :

ـ فى الحقيقة كنتُ .. أريد أن .. نتحدث قليلاً بشأن الـ ... الـ ...

وأنقذتنى بديهتى فى اللحظة الأخيرة :

ـ .. بشأن اللوحات التى شاهدتها فى المعرض بالأمس ..

هتف بى فى جفاء :

ـ اذهبى بعيدًا ..

وعاد إلى الداخل تاركًا الباب خلفه مفتوحًا ..

هذا الفنان مجنون تمامًا ، عبقريته قد قطعت الشعرة الرقيقة بينها وبين الجنون فتداخل العالمان على بعضهما ليصنعا هذه النتيجة المبهرة فنيًا ، المزرية إنسانيًا ..

فرض السؤال نفسه : هل يليق بى أن أدخل وراءه ؟

هل يعيش وحده أم مع آخرين ؟

هل آمن على نفسى مع فاقد عقله كهذا ؟

هـل ؟

قفز بى فضولى ـ الأنثوى أولاً والصحفى ثانيًا ـ كالمعتاد

فوق حواجز الأسئلة والإجابات ، ووجدتنى أدلف خلفه دون أن أنسى ترك الباب مفتوحًا تحسبًا لأى ظروف ..

المرسم هو الفوضى فى أنقى صورها ..

إنه مزيج من الأوراق والأقمشة والأخشاب والكتب والصحف والأقلام والفرش وأنابيب الألوان ، كل هذا فى خليط واحد لايمكن فيه فصل شىء عن الآخر ..

وفى ركن بعيد ، بجوار نافذة تطل على الشارع ، وقف (طارق) أمام لوحة موضوعة على حامل خشبى ، فى يد يمسك بـ (بالتة) الألوان ، وفى اليد الأخرى يمسك بالفرشاة التى يضرب بها على القماش فى حساسية فنية شديدة ..

لم أكن أرى ما يرسمه إذ كان ظهر اللوحة يواجهنى ، فاقتربت منه دون أن يلاحظ اقترابى ، وسألته عندما أصبحت بجواره :

ـ ماذا ترسم ؟

الغريب أنه رد على ، كأنه نسى أنه قال لى منذ لحظات (اذهبى بعيدًا) :

ـ أرسمها ..

قالها فى شاعرية حالمة تليق بوجد صوفى .

ـ من ؟

سألته وأنا أمد عنقى لأرى صورة نصفية كاملة لـ (مها)، وقد اخترق أزميل جبهتها فسالت بالدماء ، ومع هذا فالملامح ما زالت بريئة باسمة ..

امتزجت المشاعر داخلى تجاه اللوحة الغريبة ، وسمعت (طارق) يجيب عن سؤالى قائلاً :

ـ ملهمة الحياة والموت ..

نظرت نحوه كأنى أريد أن أسبر أغواره بالنظرات ، بنما أكمل هو مضيفاً لمسة لونية على أطراف اللوحة :

ـ .. (جالاتيا) ..

وتذكرت قول السيد (س) فى الهاتف كضوء برق خاطف .. « .. إن (جالاتيا) تلفظ الآن أنفاسها الأخيرة .. »

المقصود إذن معادلة بسيطة (مها الباز = جالاتيا) ..

ولكن من (جالاتيا) ؟

وما علاقتها بالجريمة من الأصل ؟

الوحيدة التى يبدو أنها تعرفها هى السيدة (هيام) ..

و(طارق) أيضاً ، إذ هاهو يتحدث عنها الآن ..

من (جالاتيا) ؟

فرض السؤال نفسه على لسانى ، وفرضت الإجابة نفسها على لسان (طارق) الذى انطلق ينشد :

ـ (جالاتيا) .. أسطورة أحزانى المنسية .. والعمر الذى ضيعه الفن .. والبراءة التى داخلها ألف ظن .. (جالاتيا) يا أميرة الأحلام .. يا دف الوطن .. كلما مر الزمن .. أتقوقع فى ذاتى أكثر .. يتغلغل فى أعماقى الشجن .. وأنت (جالاتيا) .. الفرح والأهل والأصحاب .. وآخر الأطهار فى دنيا العفن .. وقيد أحياه ، بمنتهى الحرية ..

هذيان ؟

أم أننى لم أفهم ما قال ؟

قررت أن أجذب الفنان من عالم وجده بالمستحيل إلى أرض الواقع ، فقلت :

ـ (مها الباز) ماتت بالأمس يا سيد (طارق) ..

نظر نحوى كأنما اكتشف وجودى للمرة الأولى ، وزمجر هاتفًا :

ـ كلا .. (جالاتيا) لم تمت ..

قلت بعد لحظة تردد :

ـ لقد وُجدت (مها) مقتولة فى سيارة أمام الـ ...

عاد يزمجر ويهتف :

ـ (جالاتيا) لم تمت .. (جالاتيا) لا تموت .. لقد عادت إلى حقيقتها فقط ..

سألته مستفهمة ومستغربة :

ـ إلى حقيقتها ؟ ماذا تعنى ؟

نظر إلى لوحته مليًا ، ثم قال وقد ترقرقت عيناه بالدمع الحبيس :

ـ كتلةٌ من حجر أصم ..

فرت دمعة من عينه ، فى نفس اللحظة التى صاح فيها

ـ كمرضى الصرع ـ وانهال بفرشاته على اللوحة ليخرقها فى نفس موضع الجبهة المصابة ..

ولم يكن هناك ما يمكننى فعله أكثر من الانسحاب السريع خارج المنزل ، خشية أن أكون أنا التالية ..

بعد اللوحة ..

* * *

٩ـ حماقة ..

جالسة إلى مكتبى ، عاجزة عن المذاكرة أو التفكير ، أرسم دوائر متشابكة فوق الورق ، أنظر إلى الهاتف الصامت بين الفينة والفينة وأكاد أرجوه أن ينطق ، تزهد نفسى قدح النسكافيه الذى لم يعد ساخناً ، أنظر إلى ساعة الحائط فأجدها قد جاوزت العاشرة بقليل ، ويتلاشى الأمل فى أن يتمخض اليوم عن جديد ..

الحصيلة حتى الآن تساوى صفر ، مزيد من الشكوك والأسئلة والحيرة ، والقليل جدًا من الإجابات المرضية ..

(هشام) لم يعد خيارًا مطروحًا الآن بعد أن عاملنى بهذا الشكل فى مكتبه ، الأدهى أنه غاضب بدوره إلى درجة عدم الاتصال بى طوال اليوم !

(باهى) مختفية ، و(شاكر) كاد يخنقنى ، والسيدة (هيام) تعرف من هى (جالاتيا) ، والفنان المجنون (شهبور) أفسد لوحته بنفسه ، والسيد (س) ما زال مختفيًا وراء الظلال ..

الشكوك تحوم كالغربان فوق رءوس الجميع ، وأنا أكاد أجن ..

هل أبادر بالاتصال ثانية بالسيدة (هيام الميهى) ؟

فكرت فيها مرارًا ، لكنى كلما تذكرت نظرتها المشتعلة عندما سألتُها عن (جالاتيا) أحجم على الفور ..

هذه المرأة يمكن أن تتحول إلى كائن مخيف بحق ..

كنت دائمًا وأنا صغيرة أخاف من فكرة أن ينشق جسد الإنسان عن وحش بشع الخِلقة كامن فى داخله ، وبرغم أنى لم أعد صغيرة إلا أننى تصورت لوهلة أن هذا ما كان سيحدث فى شقتها ..

ماذا أفعل إذن ؟

مشكلتى هى أننى فاشلة فى تقسيم نفسى ، وإذا انشغلت فى أمر ما امتصنى تمامًا حتى أنهيه ، لذا تبدو فكرة المذاكرة الآن وهمًا بعيدًا ..

المشكلة أيضاً أن ...

الهاتف المحمول يرن أخيرًا ، أهرع إليه فى شوق وأراقب الرقم المدون على شاشته ، رقم غريب لا أعرفه لكنه يبدأ

بكود (القاهرة) ، سأرد على الفور ولأترك ترف الملاحظات الآن ..

ـ آلو ....

ـ (نسرين الجبالى) ..

سألت بعفوية :

ـ من ؟

وأدركت صاحبة الصوت بعد أن نطقت بالسؤال ، أنها ..

ـ معكِ (هيام الميهى) ..

شعرت بالرعب وكأن الوحش المزعوم سيقفز عبر السماعة ليلتهمنى ، لكننى تماسكت وأنا أقول :

ـ مرحبًا بك يا سيدتى ..

ـ أخبرتك أننا سنتحدث لاحقًا ..

ـ لم أتصور أن (لاحقًا) تعنى هذه السرعة ..

ـ رجال وسيدات الأعمال لايضيعون الوقت أبدًا يافتاة ..

ـ كلى آذان مصغية ..

ـ لن يصلح الحديث عبر الهاتف ..

وتابعت بعد هنيهة من الصمت والحذر :

ـ .. هل يمكن أن نتقابل الآن ؟

كنت أعرف أن الوقت متأخر ، لكنى كنت أعرف أيضًا أننى سأقول ؛ منساقة وعلى الرغم منى خلف فضولى اللعين :

ـ بكل سرور .. فى المنزل ؟

ـ بل فى (جاليرى هيام) ، الطابق الثالث من (الفرست مول) ، تعرفين مكانه ؟

ـ بالطبع ، سأكون عندك بعد نصف ساعة على الأكثر ..

ـ أسرعى قدر استطاعتك فالمجمع التجارى يغلق أبوابه فى تمام منتصف الليل ..

ـ مسافة الطريق بإذن اللّه ..

★ ★ ★

كانت المرة الأولى التى أرى فيها هذا المجمع التجارى الرائع ، فبرغم أنى من زبائن المجمعات التجارية الدائمين إلا أن هذا بالذات كان خارج نطاق اهتماماتى ، لا أدرى لماذا ..

وصلت متأخرة جدًا بسبب المواصلات ، قبل نصف ساعة فقط من منتصف الليل ، وقد أغلقت أغلب المحلات التجارية فى المجمع أبوابها وأطفأت أنوارها ، وخلا المكان الفخم تقريبًا من الزوار والمشترين ..

على الفور صعدت إلى الطابق الثالث لأرى (جاليرى هيام) ؛ واجهة وحيدة مضيئة وسط صف طويل من المحال المغلقة ، وكان يضارع منزلها بجدارة فى أناقته وبراعة تصميمه الفنى المبهر ..

السيدة (هيام الميهى) تنتظرنى أمام مكتبها فى ركن الجاليرى ، كأنها تنتظر قدومى خصيصًا ، فصافحتها وجلست أمامها شاعرة بأهميتى ..

ـ تأخرتِ ..

قالتها بنبرة عتاب ، فزفرت قائلة فى انهاك :

ـ المواصلات فى (القاهرة) هى العذاب بعينه ..

قالت مستعيدة نبرتها العملية الجادة :

ـ دعينا نبدأ العمل على الفور ..

سألتها :

ـ أى عمل ؟

شبكت كفيها و مالت نحوى تسأل :

ـ كم تريدين ؟

صمتت أسأل نفسى عن معنى سؤالها العجيب ، ولاح عدم الفهم فى مقلتى وأنا أقول :

ـ فى مقابل ماذا ؟!

تراجعت بظهرها إلى مقعدها قائلة بلهجة سيدة أعمال عتيدة :

ـ لكل شىء ثمن .. وأنا أريد أن أسألك عن ثمن صمتك ..

غمغمت وقد أُخذت بغتة :

ـ أنت القاتلة إذن !

حدقت السيدة (هيام) فىّ للحظة ، ثم ..

.. ثم انفجرت ضاحكة !

ـ يا للحماقة !

كانت ترتج من الضحك ، فازدادت دهشتى وأنا أسألها كالبلهاء :

ـ ماذا هناك ؟

حاولت أن تمنع نفسها من الضحك لكنها لم تستطع ، وقالت مغالبة دمعها :

ـ معذرة يا فتاة .. لا أستطيع أن أمنع نفسى .. لكن .. لم أتصور أن يوجد إنسان على وجه الأرض بهذه الحماقة .. إنها نادرة من نوادر العصر حقًا !

نفضت ذهولى عن رأسى ، وقلت متماسكة بعض الشىء :

ـ ماذا هناك يا سيدة (هيام) ؟

قالت و قد بدأت منابع ضحكها تجف :

ـ التناقض المضحك هو أجمل أنواع الكوميديا .. عندما أظنك تعرفين شيئًا وتظهر الحقيقة ، أنك جاهلة ، وأننى حمقاء !

سألتها ضاغطة أسنانى فى غيظ :

ـ ماذا تخبئين وراءك يا سيدة (هيام) ؟!

تجاهلت سؤالى ، وقالت مشيرة نحو باب الجاليرى فى استخفاف :

ـ لا شىء .. تستطيعين الانصراف الآن .. وتستطيعين أيضًا أن تنسى كل ما سمعتِه منى ، كأننى لم أقله ..

ـ بهذه البساطة ؟

ـ بهذه البساطة !

نهضت وأنا أشهر سبابتى فى وجهها هاتفة فى حنق :

ـ لن تفلتى بما تخفينه فى الظل يا سيدتى .. لن تفلتى أبدًا ..

ضحكت نصف ضحكة ، وقالت بعينين تلمعان غبطة :

ـ تصورى أننى ظننتكِ لوهلة قادرة على التهديد بالفعل !

قلت كلمة واحدة :

ـ سترين ..

.. وغادرت الجاليرى دون النطق بحرف آخر ..

هبطت على السلم الكهربائى الذى يصل بين الطابقين الثانى والثالث وأنا أتجاهل النظر نحو ولجهة الجاليرى ، ملضغة غيظى بين أضراسى كأعشاب صحراوية ، ولاعنة اللحظة التى زجت بى فى خضم هذه القصة ؛ التى يتفنن أبطالها فى التخفى والإخفاء والاختفاء !

وصلت بى الدرجات الهابطة إلى الأرض الرخامية الملساء اللامعة ، وكانت كل المحلات فى الطابق الثانى قد أغلقت

وأظلمت تقريبًا ، ولم يعد فى المجمع كله سواى أنا والسيدة (هيام) اللعينة وبعض أفراد الأمن المتناثرين فى الأنحاء الشاسعة ..

اتجهت إلى السلم الكهربائى الواصل بين الطابقين الثانى والأول ، غير أنى سمعت مايشبه الصوت الخافت من بعيد ..

صوت يشبه الهمس المنادى باسمى !

استدرت إلى مصدر الصوت مقطبة ، فارتجف قلبى واهتزت أطرافى لرؤيته من بعيد ..

هناك فى نهاية الممر الذى تصنعه المحال التجارية ذات الواجهات الزجاجية المظلمة ، يقف متشحًا فى سواده ، كأنه قد توحد معه و أصبح جزءًا منه ..

إنه هو ، كان هو وسيظل هو ..

السيد (س) ..

لم أصدق نفسى ، وافترضت فى نفسى الانخداع بصريًا أو الهلوسة أو الجنون ، ومع هذا فلم أقاوم فكرة اقترابى منه أبدًا ..

اقتربت ببطء وحذر ، وأتانى الصوت بلاصوت ، كأنى أحلم :

ـ مساء الخير يا صغيرتى !

ند الهمس الذاهل عنى :

ـ أنت ؟!

ما زلت أقترب ..

ـ وهل يفر الإنسان من قدره المسطور فوق الجبين ؟

يتوحد مع الظل ، ويتداخل مع ذرات الهواء حتى يكاد يختفى ..

أسأله وصدرى يكتوى بنيران الشوق والشك :

ـ أهو أنت حقًا ؟!

ـ إنه دومًا أنا ..

أدنو بخطوات محسوبة ، كأننى أخشى السقوط فى شرك منصوب ..

ـ .. وأنتِ !

أبتلع ريقى فى صعوبة ، وفى صعوبة أقول :

ـ إنك موجود إذن ..

تحرقنى تنهيدة ساخنة ، فأتوقف عن الاقتراب ..

ـ بلا وجود ..

ويتحول من اليأس إلى سخريته الأبدية :

ـ .. علىّ إنقاذ الصغيرة من الضلال فى الطرق الجانبية كما أفعل كل مرة ..

ـ وهل ضللت طريقى ؟!

ـ بالتأكيد ..

أقول فى أمل مشوب بالشك :

ـ سترشدنى إلى القاتل إذن ..

يهيأ لى أنه هز كتفيه (مع أن الظلال لاتفعل) وهو يقول :

ـ لست بتلك القوة التى تتوسمينها فى شخصى المتواضع ..

أعقد ساعدىَ أمام صدرى ، وأتصوره يفعل مثلى متابعًا :

ـ .. ربما أملك أن أدلك على المسار الصحيح ..

أسأله دون كلام :

ـ ما هو ؟

فيجيب دون كلام :

ـ فى تمام منتصف الليل ..

أنظر فى ساعتى ، إنها تشير إلى تمام منتصف الليل تقريبًا !

يواصل :

ـ .. سيرن هاتفك الصغير ، وستعرفين كل شىء وحدك ..

أرفع هاتفى المحمول ، فيرن فى يدى بالفعل قبل أن أنظر إليه !

بدهشة لا مكان فيها لخوف أسأل :

ـ كيف عرفت ؟!

تدوى الضحكة ، ويتداخل الظل المتلاشى فى ذرات الهواء أكثر ..

ـ السيد (س) يعرف كل شىء .. انظرى من يحدثك ..

ونظرت بالفعل إلى شاشة الهاتف لأجد رقمًا لا أعرفه يبدأ بكود (القاهرة) أيضاً ، ثم نظرت إليه مجددًا وأنا أسأله مجددًا فى حيرة :

ـ لمن هذا الرقم ؟!

لكنه .. لم يكن هناك ..

الفراغ والصمت والرخام الأرضى اللامع والواجهات الزجاجية البراقة ، كل هؤلاء يخرجون لى بلسان طويل !

أين ذهب ؟!

أنا واثقة من أنه كان هنا الآن ؟!

هرولت إلى النقطة التى كان يقف فيها ، ونظرت حولى فلم أر إلا صورتى المنعكسة على الزجاج ، نظرت إلى الجهة الأخرى فرأيت نفس الصورة ـ صورتى ـ على زجاج المحل المقابل ..

أين ذهب ؟!

أين ذهب ؟!!

استدرت حول نفسى دورة كاملة كأنى أبحث عنه داخلى ، لكنى لم أجد بطبيعة الحال إلا نفسى !

الهاتف ما زال يرن فى يدى ، ولمحت بطرف عينى رجل أمن يراقبنى ـ بعينى صقر ـ من نهاية الممر ، فخمّنت أنه يتساءل فى نفسه ـ لاريب ـ عما إذا كنتُ مجنونة تمارس طقوس (العباسية) فى ظلام منتصف الليل ، أو راقصة باليه ضلت طريق (دار الأوبرا) ، أو لصة تعاين أماكن سرقاتها القادمة مستقبلاً !

سيكون إقناع مثل هذا الشخص بأننى قابلت السيد (س) منذ لحظات أمراً صعبًا ، لذا فأفضل ما يمكن عمله هو التظاهر بالاتزان ، والمضى إلى درجات السلم فى هدوء ، مع ضغط (قبول المكالمة) على الفور :

من معى ؟!

استهللت بها على سبيل التغيير ، فأتتنى الـ :

ـ آلوووووو ..

بالصوت ذى البحة والامتداد الصوتى فى آخر الـ ...

ـ (باهى) ؟!

صحت بها فى صوت ارتجت له أنحاء المجمع الخالى ، ثم أدركت كم أنا حمقاء و(باهى) ترد فى عصبية واضحة :

ـ نعم يا (نسرين) ، إنه أنا ..

خفضت من صوتى إلى حد الهمس وأنا أسألها ، بينما درجات السلم المتحرك تقلنى إلى أسفل :

ـ أين ذهبتِ بعد خروجك من المعرض أمس ؟! ولماذا اختفيت ولم تعودى إلى منزلك ؟! هل أصابك مكروه ؟! وهل ...

قاطعتنى وعصبيتها تزداد :

ـ ليس هذا وقت الأسئلة ..

هتفت وقد انتقلت إلى عدوى العصبية :

ـ وقت ماذا هذا إذن ؟!

قالت وهى تجاهد للسيطرة على نفسها :

ـ أريد رؤيتك الآن فورًا ..

ـ هل عدت إلى منزلك ؟! أعطنى العنوان بسرعة إذن !

قالت بسرعة :

ـ كلاَ .. كلاَ .. لست فى المنزل الآن .. بل فى فيلا (المقطم) ..

سألتها مقطبة كأنها سترانى :

ـ هل تملكين فيلا فى (المقطم) ؟!

تنهدت ثم قالت :

ـ إنها فيلا أحد أقربائى ، ومعى نسخة من مفاتيحها ..

ـ أعطنى العنوان إذن ..

أملته على ، ثم أنهت بقولها :

ـ لا تتأخرى بالله عليك فأنا أكاد أجن منذ الأمس !

ـ ليست معى سيارة ؛ ولكنى سأستقل إليك طائرة نفاثة إن لزم الأمر ..

كاد السلم أن يلفظنى عند الطابق الأول ، عندما دفعتنى الشكوك لسؤالها :

ـ هل قتلتِها يا (باهى) ؟!

ـ سأخبرك بكل شىء عندما أراك .. إلى اللقاء ..

وانغلق الخط وأنا أغادر المجمع كله بأقصى سرعة ، غير منتبهة فى خضم انفعالى بالمستجدات لذلك الزوج من العينين الذى يتابعنى بشغف ..

وبريق ..

★ ★ ★

١٠ـ أصل الحكاية ..

كان سائق سيارة الأجرة رجلاً مسنًّا طيبًا ، ومن يعرف منطقة (المقطم) جيِّدًا خاصة بعد أن يرخى الليل سدوله العمياء عليها ، سيدرك حتمًا أن هذا دليل على رعاية إلهية وحظ حسن ، وأنه لو لم يكن الأمر كذلك ؛ فلربما تحولت رحلتى الليلية هذه إلى كارثة بلون الدم أو خبر صغير يزين صفحة الحوادث !

أخذ الرجل يروى لى طوال الطريق حكايته مع الزمان على رأى (وردة الجزائرية) ، كيف أنه يعمل موظفاً حكوميًّا محترمًا فى الصباح ، ويكد ليلاً على الأسفلت من أجل أبنائه الأربعة الذين يدرسون فى الثانوية العامة والجامعات ، وفكرت فى أن هذه التيمة الاجتماعية تصلح موضوعاً لتحقيق صحفى ساخن ، لكنى أرجأت الفكرة حتى أفرغ من كشف حقيقة ما وراء الظلال أولاً ..

ماذا عساها تحمل (باهى) فى جعبتها من مفاجآت ؟!

هل تكون هى القاتلة ، وهى مختبئة حتى تجد طريقًا للفرار من قبضة العدالة ؟!

هل هذا ما قصدته بتعبير (الورطة) ؟! وماذا تتوقع منى أن أفعل لها لو كان الأمر كذلك ؛ سوى النصيحة الجادة بتسليم نفسها والإدلاء باعتراف كامل استعدادًا لحبل المشنقة ؟!

يقول المثل الشعبى إن خبرًا يساوى نقودًا اليوم سيصبح بلا قيمة غدًا ، ومعناه ببساطة أن معلومة ما تتحرق لمعرفتها فى لحظة معينة حتى إنك ربما تكون مستعدًا لدفع الكثير من الأموال فى سبيلها ، سيأتى عليها وقت آخر وتصبح قديمة مستهلكة بلا قيمة بعد أن يظهر غيرها ..

وهكذا توصل الحس الشعبى لقاعدة إعلامية خطيرة فرضت نفسها بقوة فى عصر الاتصالات والرقمنة والعولمة والقرية الكونية ، سابقًا زمنه بكثير كالمعتاد ..

ولحسن حظى مرة أخرى لن أضطر للانتظار يومًا كاملاً فى عذاب الفضول حتى تظهر الحقيقة ، فها هو السائق يتوقف بى فى شارع مظلم تنتصب بعض البنايات المتفرقة المسورّة على جانبيه ، ويخلو من أى مظهر للحياة أو الأحياء ..

ـ هذا هو المكان المنشود على ما أعتقد ..

قالها الرجل مشيرًا نحو سور يعلوه رقم واضح ، هو نفس الرقم الذى أملته على (باهى) فى اتصالها الهاتفى المفاجئ منذ قليل ..

نظرت فى ساعتى لأجدها تشير لما قبل الواحدة بدقيقة ، وابتلعت ريقى بصوت مسموع ثم قلت فى وجل لم أستطع إخفاءه :

ـ أشكرك .. كم حسابك يا سيدى ؟!

لاحظ الرجل ما أكابده ، فقال فى شفقة تليق بأب حنون :

ـ هل أنتظرك يا بنتى حتى تفرغى مما أتيتِ لأجله ؟

أشاعت إنسانيته فى نفسى الراحة ، وبددت بعضًا من ضباب الخوف ، لكنى قلت فى بسمة شاحبة :

ـ أشكرك مرة أخرى ، فمن المحتمل جدًا أن أتأخر ..

كأننى أعرف أصلاً سبب مجيئى !

قال الرجل بمنتهى الشهامة :

ـ لا يهم ، يمكنك التأخر كما تحبين ..

زال الشحوب من بسمتى وأنا أقول :

ـ إن صديقتى الساكنة هاهنا تملك سيارة ، يمكننا أن نعود بها وقتما نريد ..

ولم يكن هناك مجال لأن أروى له أن السيارة محتجزة من قبل الشرطة الجنائية على ذمة حادث قتل تم بالأمس !

اقتنع الرجل وكافح بصدق من أجل ألاّ يأخذ منى نقودًا ، لكنى انتصرت فى النهاية ومنحته أجرة محترمة ، ثم هبطت لتحتوينى نسائم الليل الباردة التى اقشعر لها بدنى ..

برد أم خوف أم الاثنان معًا ؟!

اتجهت نحو البوابة التى تتوسط السور العالى ذا الحواف المعدنية العالية والمسنونة ، مما يجعل أى لص أو متسلل يفكر ألف مرة قبل القفز من فوقها .. أمسكت بقبضان البوابة التى أتاحت لى رؤية الباب القريب ذا المصراعين ، الغارق فى الظلام ككل شىء من حولى .. انتبهت إلى أن الرجل المسن قد ظل واقفًا بسيارته كأنه ينتظر حتى يطمئن على دخولى بسلام أولاً ، أشرت له بذراعى أن كل شىء على ما يرام فأدار محركه وابتعد ببطء ..

أشياء كهذه تؤكد لك ـ بين وقت وآخر ـ أن الدنيا على قبحها ما زال فيها خير كثير .

داعبت أنفى روائح الياسمين والريحان المنبعثة من داخل السور فأنعشتنى قليلاً .. حاولت دفع البوابة لكنها كانت مغلقة بإحكام حتى إنها لم تهتز فى قبضتى .. رأيت زرًا عريضًا قائمًا على طرف البوابة فضغطته وانتظرت ..

رحت أغالب خوفى من المكان بتأمل الفيلا الماثلة أمامى على مهل .. إنها تتكون من طابقين وتوحى بذوق رفيع وبذخ ظاهر فى البناء ، هناك شرفة علوية صغيرة ونوافذ عديدة تحرسها قضبان حديدية تآكل طلاؤها ، والحديقة ضيقة ومهملة لكن يبدو أن هناك من يرعاها بصفة دورية ، والدليل هو روائح الزهور النفاذة التى ما زالت تداعب خلايا الشم فى أنفى ..

ـ من هذا ؟

نداء بالإنجليزية ، وصوت (باهى) المميز يأتينى عبر جهاز (الانتركوم) ..

ـ إنه أنا يا (باهى) ..

ـ (نسرين) ؟

ـ أجل ..

ـ لحظة ..

واتفتح الباب بعد أزيز سريع ، إنه جهاز فتح البوابات الذى يوفر عليك جهد النزول عندما يطرق زائر بوابة منزلك الخارجية ..

ـ .. انفتحت البوابة ؟

ـ أجل يا (باهى) ..

ـ ادخلى إذن ..

استجبت ، وشققت طريقى فى ممر ضيق مبلّط ، بينما رائحة الزهور تسكر وجدانى إذ أصبحت أكثر قوة ..

هناك من يرعى هذه الحديقة بالتأكيد ، والدليل هو هذه الفئوس ومقصّات التقليم وأجولة السماد المكوّمة فى الركن القريب ..

توقفت أمام البوابة الداخلية الخشبية ذات المصراعين ،

واستغرقتنى نقوشها الجميلة الدقيقة الجلية برغم الظلام ، حتى انفتحت هذه البوابة بدورها ، وظهرت من خلفها (باهى) ..

لم ينبعث ضوء ساطع من الداخل ، إن (باهى) تجلس فى الظلام كما هو واضح ، وها هى ذى تفتح أحد المصراعين هامسة كأنها تخشى أن يسمعها أحد :

ـ لماذا تأخرتِ ؟

العذر واحد دائمًا ..

ـ المواصلات فى (القاهرة) هى العذاب بعينه ..

ـ تعالى إلى الداخل ..

وسّعت لى طريق الدخول ، وبرغم كل المخاوف التى اعترتنى ، وبرغم كل الهواجس التى دعتنى للتريث والتفكير ، إلا أنه ما كان التراجع ممكناً بعد أن وصلت إلى هذا الحد ، وهذا هو جوهر البطولة الإغريقية كما يحلو لمنظّرى الأدب والأساطير أن يتشدقون ..

دخلت لأجد المنزل فى الداخل على صورة مخالفة تمامًا ، فهو خاو على عروشه ، الجدران لم يكتمل طلاؤها ،

الأرضيات غير مبلطة ؛ مجرد أسمنت متجمد يعلوه التراب والمهملات ، وهناك مقاعد وسلالم خشبية وأدوات طلاء ورسم متناثرة ..

من الواضح أن المكان ما زال تحت التجهيز ، أو لنقل إن هذا ما كان يوضحه مصدر الضوء الوحيد ؛ أعنى المصباح المضاء أسفل منضدة قريبة واطئة ، وقد صنع وجوده من الضوء والظلال لوحة مكانية مرعبة حقًا ..

على نفس المصدر الشحيح للضوء استدرت أرى (باهى) ، وأستطيع القول بكل ثقة ـ برغم علاقتنا الضحلة ـ إنها كانت فى أسوأ حال يمكن أن تكون عليه ..

العينان مطفأتان ومنتفختان ربما من قلة النوم ، الشعر الذى كان حريرًا سائلاً بالأمس ، قد أضحى اليوم كتلة من الخشونة المعقوصة ، البؤس يكلل الملامح كتاج من الأشواك ، والبدن يهتز فى عصبية وانفعال مكتوم ..

ـ ما الذى أتى بك إلى هنا يا (باهى) ؟

بادرتها بالسؤال ، فألقت بجسدها على المقعد الخشبى الوحيد الصالح للاستخدام ، وغمغمت :

ـ كنت فى حاجة للاختلاء بنفسى ، فلم أجد أبعد من هذا

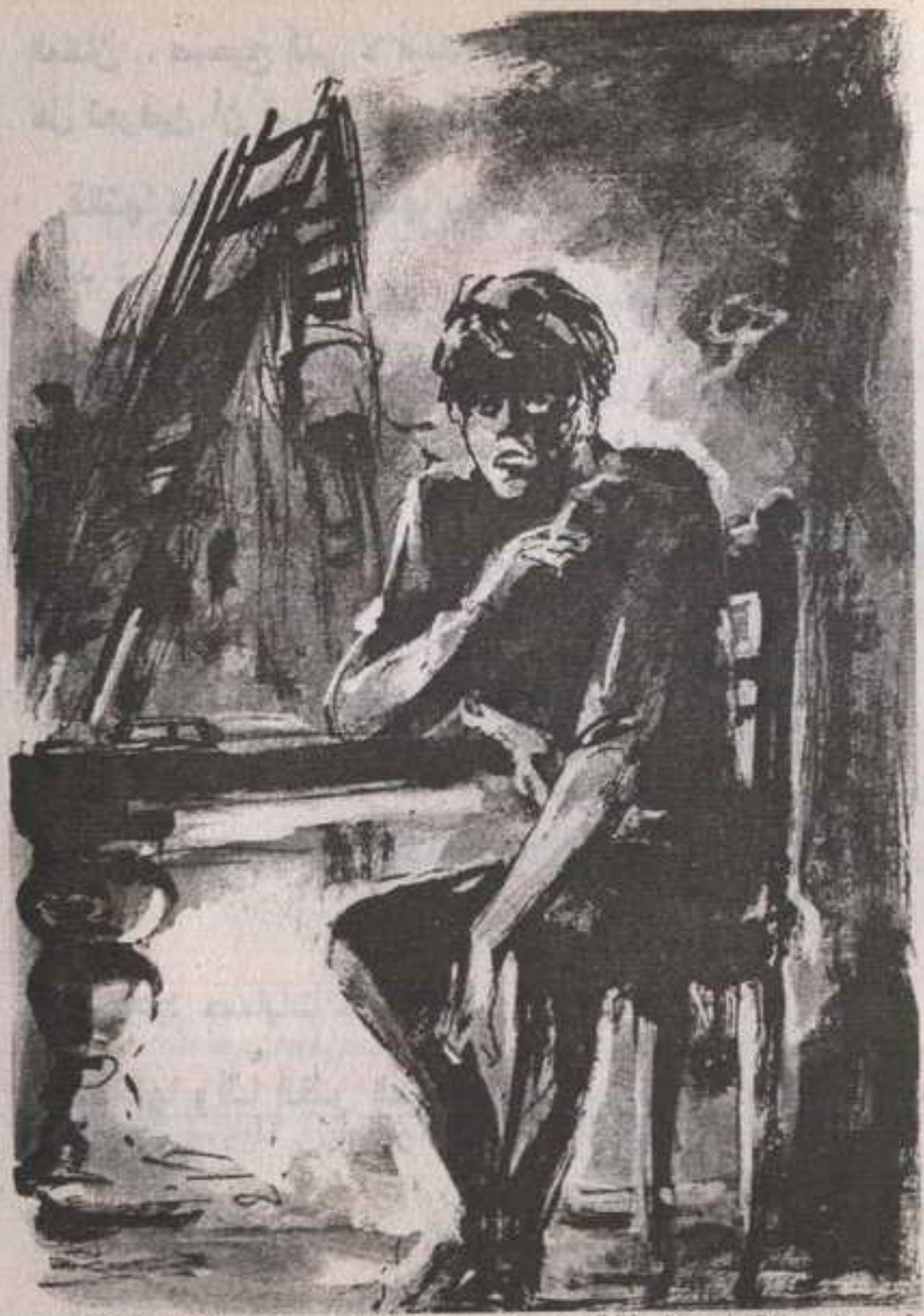

وأستطيع القول بكل ثقة ـ برغم علاقتنا الضحلة ـ إنها كانت فى أسوإ حال يمكن أن تكون عليه ..

المكان .. صحيح أننى لا أملكه لكنه ملك خاص بزوج أمى ، هل تعرفين أن أمى متزوجة بغير أبى ؟

قالتها كأنها تجلد نفسها بسوط من الكلمات ، فقلت بعد تردد :

ـ عرفت عنك الكثير اليوم ..

تجاهلت ردى ، وقالت فى مرارة ساخرة :

ـ ومن يتزوج أمى فهو عمى ، شقيق أبى .. يا للسخرية المقيتة ..

ـ ولماذا تحتاجين إلى الاختلاء بنفسك الآن بالذات ؟

أمسكتْ بعلبة موضوعة على المنضدة التى ينبعث من أسفلها الضوء ، عاكسًا الظلال على وجهها المتعب ، وهى تقول :

ـ لأعيد حسابات كثيرة بينى وبين نفسى ..

سألتها وأنا أنظر إلى العلبة التى تخرج منها لفافة طويلة :

ـ ولماذا طلبتِ قدومى إليكِ الآن ؟

ـ حتى لا يفوت الأوان ..

ـ أوان ماذا ؟

ـ أوان الاعتراف ..

وعلى الضوء المنبعث من أسفل المنضدة استطعت أن أرى المدون فوق العلبة بوضوح ..

الحروف اللاتينية الشهيرة لكلمة : (مارلبورو) ..

كتمت شهقتى بصعوبة وأنا أسألها ، بينما هى تشعل سيجارتها :

ـ هل تدخنين أنتِ أيضًا ؟

ـ نعم ، أدخن .. هل يصنع هذا فارقًا ؟

ـ بالتأكيد .. يصنع هذا فارقًا يا (باهى) .. فارقًا كبيرًا ..

وملأت صدرى بالهواء قبل أن أقول :

ـ .. لقد قتلتِ (مها) يا (باهى) .. أليس كذلك ؟

صمتت طويلاً ، وأخذت من السيجارة أنفاسًا كثيرة ، قبل أن تقول فى هدوء شديد :

ـ بلى .. قتلتها ..

وهالنى ـ برغم التوقع ـ اعترافها ، وهالنى أكثر أن تقولها بهذا الدم البارد ..

ـ .. لكنّى لم أقتلها وحدى ..

سألتها مستغلة لحظة صراحتها هذه :

ـ من شريكك إذن ؟

طال صمتها مجدداً ، قبل أن تقول متجاهلة سؤالى :

ـ لم أتصور أبدًا أنه يستطيع فعلها بهذه السهولة ..

بدأت الأمور تتضح إذن ..

ـ من تقصدين ؟ (شاكر مهران) ؟

نظرت نحوى ، لكنى لم أر عينيها ، كل ما رأيته كان الظلال التى تكسوها ..

ـ هل تريدين سماع القصة من بدايتها ؟

قلت فى حزم يليق بى :

ـ بالطبع ، لكنك ستروينها مرة أخرى أمام الشرطة بعد قليل ..

تجاهلت قولى ، وشرعت تقول :

ـ لا أتصور أنه يوجد من يضاهينى بؤسًا فى هذا العالم .. أنا أكثر أهل العالم شقاءً برغم كل ما أجده حولى من أموال وحرية .. أبى وأمى تركانى فى المهد ليبحث كل منهما عن سعادته الخاصة فى أرض بعيدة ، وجدتى كانت برغم مرضها أبًا لى وأمًا ؛ حتى سرقها الموت منى بعد عامين أمضيتهما فى كلية (الآداب) ، فوجدت نفسى وحيدة تماماً بين جدران منزلى ، وآه من الوحدة لو تعلمين يا صديقتى .. آه من الوحدة لو تعلمين ..

كنت أريد أن أقول لها أشياء كثيرة ، منها أننى أعلم ؛ فأنا الأخرى أمضى جل أوقاتى وحيدة ، لكن هذا لا يعد عذرًا يكفينى لاغتيال واحدة من صديقاتى ..

لكنى فضلت أن أتركها تلقى بكل ما يعتمل فى صدرها :

ـ .. قال لى أبى فى اتصال هاتفى : حاولى تدبر أمورك بأى وسيلة ، فمن الصعب أن أدبر لك إقامة فى (أستراليا) لأكثر من عدة شهور ، وقالت لى أمى فى مكالمة أخرى : لن يتركنى (عمك) أبتعد عن المنزل لأكثر من بضعة أسابيع ، فهل يمكنك المعيشة وحدك بعد هذه المدة ؟ أغرقا

حسابى البنكى بالأموال ، أتانى مفتاح السيارة بالبريد ، الملابس والأحذية والاكسسوارات والمشغولات الذهبية انهالت علىّ فى طرود مغلقة ، لكنى لم أكن فى حاجة لأى من هذا ..

واختنق صوتها بالبكاء وهى تضيف :

ـ .. ماكنت أحتاج إليه كان أبسط من هذا بكثير : بعض المشاركة الإنسانية فقط ..

سرقت منى تعاطفًا معها ، لكنها لم تنجح أبدًا ـ ولن تنجح ـ فى تغيير موقفى تجاه جريمتها ..

تابعت بعد أن ابتلعت دموعها :

ـ .. هنا تعرفت (مها) .. كنت فى مكتب سمسار عقارات أتابع إجراءات بيع عقار يملكه زوج أمى ، بعد توصية هاتفية ملحّة من الأخيرة لى بالمتابعة ، وكانت (مها) هناك تبحث عن سكن متواضع ، تبدأ فيه مع مجموعة من زميلاتها سنتهن الدراسية الأولى فى (الفنون الجميلة) ، لكنها لم تجد ما يوازى قدرتها الاقتصادية المحدودة على الإنفاق .. أسرتنى ملامحها وبراءتها فامتدت أواصر التعارف بيننا وخرجنا من مكتب السمسار صديقتين ، قضت معى اليوم

ثم كان يجب أن تعود إلى مدينتها (الإسكندرية) فى المساء ، أوصلتها إلى محطة القطار ، ولم أشعر بنفسى على الرصيف إلا وأنا أعرض عليها أن تأتى للإقامة معى فى شقتى .. تبادلنا الهواتف على وعد بالاتصال ، وعندما بدأت الدراسة الجامعية بعدها بأسبوعين كانت (مها) تقيم معى بالفعل ..

أشعلت سيجارة أخرى ثم تابعت :

ـ .. امتلأت الشقة ـ بوجود زهرتين يانعتين فيها ـ بالحياة والعطر والمرح ، ارتبطت بها بشدة ، وشعرت بأنها ملأت الفراغ الهائل الذى كان موجودًا فى حياتى ، ولعل هذا بالتحديد هو ما جعلنى أنقل أوراقى من كلية (الآداب) إلى (الفنون الجميلة) بعد عامين كاملين من الدراسة فى الأولى .. كنا نذاكر ونعد المشاريع معًا ، ونمضى أوقات الفراغ والراحة معًا أيضًا ، بل ونتشارك فى تجهيز هذه الفيلا التى يملكها زوج أمى حسب رؤانا الفنية المجنونة .. أدخلتنى هى عالم المعارض والملتقيات الفنية ، وأدخلتها أنا عالم النادى والرحلات وحفلات الشواء الصاخبة تحت سفح الهرم .. عرفتنى هى على (طارق شهبور) ،

وعرفتها أنا على (شاكر مهران) .. امتلأت اهتمامًا بينما تتابع هى وسط سحابات الدخان الكثيف :

ـ .. (طارق شهبور) كان فنانًا تعرّفتُه فى أحد الصالونات الثقافية ، وعرض عليها أن تعمل موديلاً لمجموعة من لوحاته فوافقت ، وقالت لى إنها تحلم بأن تكون مثل (سوزان فالادون) الفنانة الباريسية الأسطورة ، التى أتت من قاع الفرق المجولة والألعاب البهلوانية إلى لوحات (بوفيس دى شافان) و(ديجا) و(رينوار) و(تولوز لوتريك) عن طريق عملها كموديل ، حتى شاهد الأخير رسمًا لها فى يوم من الأيام فصاح بها : « أنت فنانة موهوبة ! » ، وتحولت بعدها من موديل إلى فنانة مبدعة ذات مكانة محفوظة فى تاريخ الفن ، وأنجبت فناناً آخر فاقها موهبة وشهرة هو (موريس أتريللو) الذى يعد أشهر من رسم شوارع (باريس) وأزقتها الجانبية .. لم أرتح لـ (شهبور) أبداً بجنونه وشروده الدائم ، لكنى لم أبح لـ (مها) بهذا خوفًا من إغضابها ، وتعاملت مع الوضع ببساطة برغم ملاحظتى بأنه لم يكن يعتبرها مجرد موديل مأجورة فقط .. كل ما ضايقنى هو أن عملها هذا كان يدفعها للغياب الطويل عن المنزل ، ويعيدنى من جديد فريسة بين أنياب الوحدة القاتلة ..

أنفاس أخرى من السيجارة ، ثم :

ـ .. أما (شاكر) فقد كان صديقى منذ زمن ، كنت أعرفه عبر النادى كما أعرف الكثيرين ممن هم على شاكلته ، ومعه كانت (مها) تسفر عن وجهها الآخر .. ذلك الوجه المادى الطموح .. لاحظت أنها كانت تبادر بالاتصال به كثيراً ، وأنها كانت تلازمه كظله عندما نلقاه بالمصادفة فى النادى ، بل واكتشفت أنها كانت تدارى عنى لقاءات كانت تتفق معه عليها فى أماكن عامة .. باختصار كانت (مها) تحاول إلقاء شباكها من حوله ، تحقيقاً لطموحاتها بالارتفاع إلى مصاف علية القوم الذين يمثلهم هو فى ناظريها .. لم يعاونها ذكاؤها على اكتشاف حقيقة أن (شاكر) كان يتخذ منها وسيلة لإثبات وسامته وسطوته التى لا تقاوم على الجنس الآخر ، وأنه سوف يملّ منها يومًا ويصارحها بالحقيقة القاسية ..

المزيد من الأنفاس والاعترافات :

ـ .. تم هذا منذ فترة قريبة جدًا ، ربما أقل من أسبوعين ، ولعلك لاحظت بنفسك كيف كان يعاملها باستخفاف وتعامله بتجاهل صباح أمس فى النادى .. أما ما كان تجهله (مها)

فهو تلك العلاقة التى تربطنى بـ (شاكر)، والتى أجاهد لإخفائها حتى تتم بالزواج .. نعم، أعرف أنه لايحبنى، وأنه قد يتزوجنى طمعًا فى أموالى، وأن علاقاته النسائية أكثر من أن تعد أو تحصى، لكنه زوج المستقبل بالنسبة لى .. أقبل هذه الحقيقة كما أقبل حقيقة أن الشمس تشرق يوميًا، وأن الشرق يقع جهة الشرق والغرب يقع جهة الغرب !

هتفت بها وقد أجبرتنى الدهشة على الخروج عن صمتى :

- زواج ؟! أنتِ ستتزوجين بـ (شاكر مهران) ؟!

- نحن مخطوبان تقريبًا، وسنتزوج فور تخرجى فى الكلية فى العام القادم !

سألتها فى غضب :

- وقتلتِ (مها) غيرة عليه ؟!

أجابتنى فى هدوء وهى تشعل سيجارة من أخرى :

- أنا لا أغار عليه .. أخبرتك أننى أعرف بعلاقاته كلها، وهو يرويها لى كما يروى طفل لأمه مغامراته المدرسية

مع أصدقائه .. وأخبرتك أيضاً أننى أعرف أنه لا يحبنى برغم تصريحه لى بالعكس، فهو لايحب إلا نفسه فقط .. ربما كانت علاقة مريضة ولكن، أنا أقبلها بكل مساوئها .. لقد تزوج أبى بأمى بعد قصة حب تاريخية، وكانت النتيجة كما ترين .. هذه العلاقة تمنحنى ضماناً بولاء (شاكر) لأموالى على الأقل ..

صحت فيها غير مصدقة :

- ألا يحتمل أن يكون يخدعك كالأخريات ؟

قالت فى لامبالاتها الأبدية :

- محتمل جدًا، ولن أصدم إذا تركنى مع وضعى لهذه الحقيقة البديهية نصب عينى ..

سألتها وذهولى يتعاظم من إجاباتها :

- ولماذا لم تخبرى (مها) بهذا ؟ على الأقل تحذيرًا لها من الانخراط فى علاقة كهذه ..

قالت بنفس اللا مبالاة :

- لم أكن أريد إغضابها .. فى جميع الأحوال كانت المسكينة ستصدم ..

صحت وأنا أفقد أعصابى وقدرتى على الفهم :

ـ لماذا قتلتِها إذن ؟ رحمة بها ؟

ـ ربما كانت هذه وجهة نظر (شهبور) حقًا ..

هتفت مبهوتة :

ـ (شهبور) ؟ وما علاقته بالـ ...

قاطعتنى واستطردت :

ـ بالأمس أتتنى (مها) فى المعرض غاضبة ، وهى تسألنى عن صحة علاقتى بـ (شاكر) ، لم أدر من أخبرها وخمنت أنه ربما يكون (شاكر) نفسه .. حاولت تهدئتها وأخبرتها أننا سنتحدث فى الأمر بعد أن نعود للمنزل .. طلبت منى مفتاح السيارة فناولتها إياه ثم تركتنى ، وأعتقد أنكِ قد لمحتِنا ونحن نتحاور همسًا .. بعدها احتدم النقاش بينها وبين (شاكر) ، لست أدرى ماذا كانا يقولان حتى هذه اللحظة ، فى الغالب كانت تلومه على إخفاء هذه الحقيقة عنها ولم أهتم ، لكنى رأيتهما يغادران فأوجست خيفة ، ومع هذا فقد أمِلتُ خيرًا ..

غمغمت وعقلى يجاهد لاستخلاص الحقيقة من بين الكلمات :

ـ قتلها (شاكر) إذن ؟!

قالت نافية :

ـ لقد نسيتِ أن (طارق شهبور) تبعهما وقتلها !

قلت وعقلى ما زال يجاهد :

ـ إنه الفنان إذن ..

تركتنى أغوص فى علامات الاستفهام ، وتابعت :

ـ بعدها تلقيت تلك المكالمة على هاتفى المحمول ، لم تكن مشوشة لكنى تظاهرت بأنها كذلك حتى يتسنى لى الخروج لمتابعة ما يجرى فى الخارج ، وبالفعل ذهبت و ...

قاطعتها بنفاذ صبر :

ـ هو أنتِ إذن ..

هزت رأسها يمنة ويسرة ، وقالت :

ـ لقد شاركت بالجريمة فعلاً ، عندما لم أتدخل لمنع القاتل ولو حتى بالصراخ ، من وقفتى بمكان قريب يتيح لى رؤية كل شىء !

هتفت بها وأنا أكاد أجن :

ـ رباه !! لقد شاهدت الجريمة وقت حدوثها !!

هزت رأسها لأعلى وأسفل هذه المرة ، وهى تقول :

ـ هذه حقيقة .. رأيت القاتل وهو يتسلل بخفة إلى المقعد الخلفى لسيارتى ، ورأيته يمد يديه ليعتصر رقبة (مها) التى استماتت للدفاع عن حياتها ، قبل أن تفقد المقاومة .. والحياة ...

صحت والحيرة تفعل بى أفاعيلها :

ـ من هو يا (باهى) ؟!

تجاهلت سؤالى ، ربما عن عمد ، وربما ...

ـ تملكنى الارتباك الرهيب وقتها ، فأتيت إلى هنا على وجه السرعة ..

ـ أهو (طارق شهبور) ؟!

واصلَتْ التجاهل ، أو الهروب ..

ـ ومنذ الأمس وأنا أضرب أخماسًا فى أسداس ، وأتساءل عن أفضل ما يمكن فعله فى موقف معقد كهذا ..

ـ أم (شاكر مهران) ؟!

صمتت ، ثم قالت :

ـ هدانى تفكيرى لأن أتصل بك وأستشيرك .. لم يكن معى رقم المحمول الخاص بك فكدت أجن ، لكن الحظ كان حليفى عندما وجدت نسخة قديمة من الجريدة التى تعملين فيها وسط المهملات هنا .. اتصلت بهم وحصلت على رقم هاتفك المحمول من هناك ..

تفكير سليم حقًا ، لكنى لم أعِ شيئًا وأنا أصرخ فيها لحظتها :

ـ من هو يا (باهى) ؟! من ؟!

أشعلت سيجارة جديدة لتحرق المزيد من نفسها ، وقالت بعد أن قررت أخيرًا أن ترحمنى :

ـ .. إنه ..

فى هذه اللحظة سمعنا صوتًا قويًا لشىء يتحطم ، واستدرنا نحو الباب الخشبى ذى المصراعين ، لنرى مزلاجه يتهاوى فوق الأرض ..

قفزت (باهى) من فوق مقعدها ، وهتفت بى :

ـ هل أغلقتِ البوابة الحديدية خلفك ؟!

تبًا لى !

عجز لسانى عن الرد ، فى حين انفتح مصراعا الباب بقوة ..

ـ عمتما مساءً أيتها الجميلتان ..

كان القاتل يقف خلف الباب ، وكانت ملامحه واضحة تماماً برغم الظلام الدامس ، الذى لا يبدده إلا المصباح الكهربى الوحيد أسفل المنضدة ..

ولم تكن (باهى) تنتظر منى إجابة ، ولا أنا أيضًا ..

فالموقف كان يتحدث عن نفسه بأبلغ مما يمكن أن يقال !

★ ★ ★

١١ـ فن .. وجنون !

ألقت علينا السيدة (هيام) تحية المساء ، ووصفتنا بالجمال ، ثم سارت نحونا بضع خطوات ، فيما وقف (طارق شهبور) متجمدًا ، شاردًا كديدنه ، قابضًا بأصابعه النحيلة على الفأس الذى حطم به مزلاج البوابة الخشبية ..

نفس الفأس الذى رأيته منذ قليل ملقى فى إهمال بجوار معدات البستنة الأخرى ..

ـ كيف عرفتما هذا المكان ؟!

سألتهما (باهى) وفرائصها ترتعد ، بينما قالت (هيام) فى قوة تتناسب وشخصيتها :

ـ الفضل لصاحبتك التى ملأ صوتها أنحاء المجمع الخالى !

لم تفهم (باهى) بالتأكيد ماذا كانت تعنى بالمجمع الخالى ، لكنها فهمت أننى المسئولة مرتين عن وصول القاتل ورفيقته إلى هنا ، مرة بإرشادهم إلى المكان ، ومرة بترك البوابة مفتوحة من خلفى ، ولو كانت نيتى حسنة فى أول الأمرين فهل يمكن أن تكون كذلك فى الآخر ؟!

تجاهلت نظرتها ، وقلت لـ (هيام) فى قوة لم أدر منشأها :

ـ كنت تتسترين عليه إذن !

قالت المرأة فى صفاقة :

ـ أنت قلتها بنفسك ، على المرء أن يحمى مصدر ثروته ..

والتفتت إلى (باهى) متابعة :

ـ .. حين غابت هذه الفتاة عن الأنظار شككت فى كونها تعرف شيئًا ، ويبدو أن شكوكى فى محلها تمامًا ، فهى تملك أقوى وسائل المعرفة .. الرؤية !

صاحت (باهى) مذعورة :

ـ لقد سمعتِ ما قلناه إذن !

تجاهلتها المرأة ونظرت إلى مجددًا لتقول :

ـ وحين أتيتِ يافتاة لتلوحى فى وجهى بورقة (جالاتيا) ، شككت مرة أخرى فى أنك تعرفين معنى ما تقولينه ، وقلت لنفسى إنه ربما كانت هناك علاقة ما بينكما ، وأنكما تنويان ابتزازى فى مقابل كتمان ما تعرفانه ..

هتفت فى كراهية :

ـ تفكير حقير حقًا !

ضحكت المرأة وقالت فى استمتاع وحشى :

ـ أحب هذا النعت حقًا الذى يطلقونه على كل الأعمال التى تدر ربحاً مضمونًا ..

ثم إنها سألتنى :

ـ ألم تعرفى حتى الآن من تكون (جالاتيا) يا فتاة ؟

عقدت ساعدى أمام صدرى وأنا أقول فى تحدٍ :

ـ ومن أين لى أن أعرف ؟!

عادت ضحكتها تجلجل وهى تقول :

ـ أحيانًا تكون الأمية ميزة كبيرة حقًا ..

شعرت بالإهانة ، بينما قالت هى :

ـ .. إن (جالاتيا) هو اسم التمثال الرخامى الرائع الجمال الباهر الحسن الذى صنعه (بيجماليون) ، والأخير كان مثالاً قبرصيًا يسكن مدينة (أماثيوس) التى يتندر أهلها بفنه وجنونه ، حتى إنه بعدما صنع تحفته هذه وقع فى عشقها ،

وابتهل إلى (أفروديت) أن تهبه امرأة فى جمال هذا التمثال ، ولما استيقظ من نومه وجد التمثال امرأة من لحم ودم ، فلما عاش مع المرأة قليلاً وجد أنها قد فقدت روح الكمال الذى يتصوره الفنان فى فنه ، فعاد يبتهل إلى (أفروديت) أن تعيدها تمثالاً ، وقد كان ، لكن هذا أيضًا لم يعجب الفنان ، فقرر فى النهاية أن يتمرد على نفسه المنقسمة ، وأن يحطم تمثاله الذى صنعته يداه ..

رباه ..

هذا يفسر كل شىء حقًا !

لو لم أكن بالأمية التى وصفتنى بها السيدة (هيام) لعرفت أن الفنان هو القاتل منذ البداية ..

(.. إن (جالاتيا) تلفظ الآن أنفاسها الأخيرة ..) ..

ـ .. لقد وقع (طارق) فى الحب بكل أسف ، أحب الموديل التى تلهمه لوحاته ، ورفعها إلى مصاف عليا لم تفهمها نفسها التائقة إلى متاع الدنيا الزائل .. الغبية لم تفهم أن الخلود الذى يمنحها إياه بفنه أهم من الترف الذى يعدها به (شاكر مهران) البراق من الخارج فقط .. أدمى هذا قلب

الفنان وأشعره بالحزن ففاض فنًا ، ثم إننى قمت ببعض التحريات ، وعرفت بأمر تلك العلاقة الخفية التى تربط (شاكر) بك يا عزيزتى (باهى) .. أخبرت (مها) بنفسى وتركتكم تتعاركون ، ثم فرضت النهاية الإغريقية نفسها ، فقتل (بيجماليون) تمثاله الأثير ..

نظرت نحو (طارق) الذى مازال متجمداً بفأسه أمام البوابة ، وسألتها دون أن تلين لهجتى :

ـ وهل تظنين أن (بيجماليون) سيفلت بفعلته هذه ؟!

قالت بثقة :

ـ أستطيع أن أضمن لك هذا بعد دقائق معدودة ..

ونظرت إلىّ مليًا ، ثم حولت بصرها إلى (باهى) متابعة :

ـ بعد أن يزول كل من يعرف بالأمر زوالاً أبديًا ..

احتمت (باهى) بجسدى ـ كأننى أستطيع حمايتها ـ وهى تهتف :

ـ ماذا ستفعلين بنا ؟!

هزت (هيام) كتفيها وهى تقول ببساطة :

ـ ستلحقان بـ (جالاتيا) ، ولتفخرا بأن ذلك سيكون على يد الفنان نفسه !

ثم إنها فرقعت بإصبعيها فتقدم (طارق) حاملاً فأسه ، وتراجعت وخلفى (باهى) بينما (هيام) تقول كأنها تلقى بمحاضرة عن الموت :

ـ .. إن (طارق شهبور) فنان واعد ، أستطيع التنبؤ له بالعالمية بعد سنين قليلة ، وقد ينشئ مدرسة جديدة فى الفن ، ويكتب اسمه فى كل المراجع العلمية .. لن يعترض مستقبله هذا شىء ، وإن كلفنا ذلك بعض الحيوات التافهة مثل حياتكما أو حياة صديقتكما الميتة !

تقدم منا (طارق) ببطء ، وتراجعنا ببطء ، و(هيام) استمرت تقول :

ـ .. دعانى أصارحكما بأن (طارق) يعانى فصامًا مريعًا ، يجعله يفقد علاقته السوية بعالمنا هذا ، ويدخل

إلى عالم آخر ملىء بالخيالات والرؤى ، وفور عودته لعالمنا يسجل ما رآه هناك فوق الورق بألوان وظلال .. وربما كان هناك الآن .. من يدرى سواه ؟!

(طارق) يدنو ، ونحن نتراجع بين الأشياء المتناثرة ، والمرأة تتابع :

ـ .. المهم أننى فى جميع الأحوال أسيطر عليه ، فهو صنيعتى التى سأرتفع بها إلى أعلى عليين .. هيا يا (طارق) ، لنقدم ضحيتين جديدتين قرباناً جديدًا على مذبح الفن ..

(طارق) يهذى ببضع عبارات غير مفهومة ، يصبح قاب قوسين أو أدنى منا ، نواصل التراجع فى هلع جعلنا نرتعد ، ثم ..

تتعثر (باهى) فى بعض الأخشاب المكومة على الأرض ، وتسقط جاذبة إياى خلفها ، فأسقط بدورى ليرتطم رأسى بجسم حاد ..

آخر ما سمعت قبل الرحيل إلى الظلام كان صوت (هيام) يهتف :

ـ هيا يا (طارق) ، أجهز عليهما ..

ثم هتافها يعلو وقد تحول إلى نبرة أخرى فيها بعض الذعر :

ـ يا إلهى .. (طارق) .. انظر .. من هذا ؟!

وأغيب عن الوعى ..

★ ★ ★

خاتمة أخرى

نظرت السيدة (ألفت همام) إلىَّ أخيرًا ، بعد أن استغرقتها قراءة التحقيق لمدة طويلة ، وقالت :

ـ هل حدث هذا حقًا يا (نسرين) ؟!

أومأت لها برأسى باسمة وأنا أقول :

ـ إنه ما يحدث فى كل مرة تقريبًا يا سيدتى !

وضعت الأوراق فوق المكتب وهى تقول :

ـ المشكلة أن هناك بعض الأشياء العصية على التصديق ، مثل أن صديقتك هذه .. ما اسمها ؟!

نظرت إلى الأوراق مجددًا لكنى اختصرت عليها الطريق بقولى :

ـ (باهى) ..

ـ نعم .. مثل أن صديقتك هذه لم تتصل بك فى صباح

اليوم المزعوم ، وإنها أقسمت لك فيما بعد على أنها التقتك فى النادى بالصدفة !

هززت كتفى وأنا أقول :

ـ هذا ما حدث ياسيدتى .. وليس لصديقتى أى مصلحة فى أن تكذب علىّ !

خلعت السيدة (ألفت) عويناتها وهى تغمغم :

ـ السيد (س) هذا لغز كبير ..

قلتُ وبسمتى تتسع :

ـ ومازالت مصرة على أن هذا مايجعل له سحرًا خاصًا ..

ـ نعم ..

قالتها متنهدة وهى تهز رأسها عدة مرات ، ونظرت طويلاً إلى الأوراق التى تحتوى على التحقيق قبل أن تقول :

ـ .. لكن القضية ساخنة ، والأسلوب جيد ، والعناوين

مثيرة ، ربما كان هناك فقر فى الصور لكن هذا يمكن تغطيته ..

ورفعت قلمها الأحمر لتؤشر فوق العنوان الكبير تأشيرة (يطبع) ، فاتسعت بسمتى إلى الحد الذى صار من المستحيل أن تتسع بعده أكثر ..

★ ★ ★

[تمت بحمد الله]

روايات مصرية للجيب

سلة الروايات

في كل رواية متعة دائمة !!

محمد سليمان عبد المالك

مغامرات "س"

وراء الظلال

قالت (مها) كأنها تستجوبني في تحقيق نيابة :

- هو مجهول الهوية إذن ..
- هذا هو سره وسحره ..
- تعجبني جداً فكرة الملاك الحارس هذه ..
- ليست فكرة بقدر ما هي حقيقة أجابهها بين وقت وآخر ..

عقدت (باهي) حاجبيها وسألت في ضيق :

- عمّن تتحدثان ؟ من يكون (س) هذا ؟

مطابع سلاح التلميذ

طباعة ونشر
المؤسسة العربية الحديثة
للطبع والنشر والتوزيع

الثمن في مصر ٢٥٠ ص
وما يعادله بالدولار الأمريكي
في سائر الدول العربية والعالم